

## كراسات مستقبلية

سلسلة غير دورية تصدرها المكتبة الأكاديمية تعنى

بتقديم الاجتهادات الفكرية والعلمية ذات التوجه المستقبلى

رئيس التحرير أ.د. أحمد شوقى مدير التحرير أ. أحمد أمين

المراسلات :

### المكتبة الأكاديمية

شركة مساهمة مصرية

رأس المال المصدر والنفوع ٩,٩٧٣,٨٠٠ جنيه مصرى

١٢١ شارع التحرير - الدقى - الجيزة

القاهرة - جمهورية مصر العربية

تليفون : ٧٤٨٥٢٨٢ - ٢٣٦٨٢٨٨ (٢٠٢)

فاكس : ٧٤٩١٨٩٠ (٢٠٢)



المكتبة الأكاديمية

شركة مساهمة مصرية

الحاصلة على شهادة الجودة

**ISO 9002**

Certificate No.: 82210

03/05/2001

## الميديا والتحديث

obeykandi.com

# الميديا والتحديث

تأليف  
سامى خشبة



الناشر

المكتبة الاكاديمية

شركة مساهمة مصرية

٢٠٠٢

## حقوق النشر

الطبعة الأولى ٢٠٠٢م - ١٤٢٢هـ

حقوق الطبع والنشر © جميع الحقوق محفوظة للناشر :

### المكتبة الأكاديمية

شركة مساهمة مصرية

رأس المال المصدر والمفوع ٩,٩٧٢,٨٠٠ جنيه مصرى

١٢١ شارع التحرير - الدقى - الجيزة

القاهرة - جمهورية مصر العربية

تليفون : ٧٤٨٥٢٨٢ - ٣٣٦٨٢٨٨ (٢٠٢)

فاكس : ٧٤٩١٨٩٠ (٢٠٢)

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من الناشر .

تزايدت في السنوات الأخيرة ، عمليات إصدار كراسات تعالج في مقال تفصيلي طويل (Monograph) موضوعاً فكرياً أو علمياً مهماً . وتتميز هذه الكراسات بالقدرة على متابعة طوفان الاتجاهات والمعارف الجديدة ، في عصر يكاد أن يحظى باتفاق الجميع على تسميته بعصر المعلومات .

تعتمد هذه الميزة على صغر حجم الكراسات نسبياً بالمقارنة بالكتب ، وتركيز المعالجة وتماسك المنهج والإطار . ولأهمية الدراسات المستقبلية في هذه الفترة التي تشهد تشكيلاً متسارعاً لملامح عالم جديد ، سعدت بموافقة المكتبة الأكاديمية وحماسة مديرها العزيز الأستاذ / أحمد أمين لإصدار « كراسات مستقبلية » كسلسلة غير دورية مع تشريفي برئاسة تحريرها .

والملامح العامة لهذه السلسلة ، التي تفتح أبوابها لكل المفكرين والباحثين العرب، تتلخص في النقاط التالية :

- انطلاق المعالجة من توجه مستقبلي واضح (Future-oriented) أى أن يكون المستقبل هو الإطار المرجعي للمعالجة ، حيث يستحيل استعادة الماضي ، ويعانى الحاضر من التقادم المتسارع بمعدل لم تشهد البشرية من قبل .
- الالتزام بمنهج علمي واضح يتجاوز كافة أشكال الجمود الإيديولوجي . مع رجاء ألا تتعارض صرامة المنهج مع تيسير المادة وجاذبية العرض .
- الابتكارية Creativity المطلوبة في الفكر والفعل معاً ، في زمان صارت النصيحة الذهبية التي تقدم فيه للأفراد والمؤسسات : تجدد أو تبتدد Innovate or evaporate !!

• الإلمام العام بمنجزات الثورة العلمية والتكنولوجية ، التي تعد قوة الدفع الرئيسية في تشكيل العالم ، مع استيعاب تفاعلها مع الجديد في العلوم الاجتماعية والإنسانية، من منطلق الإيمان بوحدة المعرفة .

• مقارنة الموضوعات المختلفة سواء أكانت علمية أم فكرية مؤلفة أم مترجمة ، من منظور التنمية الشاملة والموصولة أو المستدامة - Comprehensive and Sustainable Development ، التي تتعامل مع الإنسان كجزء من منظومة الكوكب ، بل والكون كله .

كراسات هذه السلسلة تستهدف تقديم رؤيتنا لمستقبل العالم من منطلق الإدراك الواعي لأهمية التنوع الثقافي ، التي لا تقل عن أهمية التنوع البيولوجي الذي تحتفى به أدبيات التنمية الموصولة . إننا نقدم رؤيتنا كمصريين وعرب ومسلمين وجنوبيين للبشرية كلها دون ذوبان أو عزلة ، فكلاهما مدمر ومستحيل .

## هذه الكراسة

قضى صاحبها عمره في طلب الثقافة الراقية ونشرها في مجتمعنا المصرى والعربى . وامتد عطاؤه من خلال إشرافه على صفحة الثقافة بالأهرام إلى تقديم أسماء جديدة ، كان من حظ كاتب هذه السطور أن يكون أحدها ، حيث احتفى منذ منتصف الثمانينات بفتح الباب واسعاً أمام الكتابات المتعلقة بالعلم والمستقبل ، وهما المحوران اللذان يدور حولهما مشروع الكراسات .

لقد قدم المؤلف مساهمات عديدة تأليفنا وترجمة فى مجالات الفكر والثقافة بوجه عام . ومن أهم منجزاته الأخيرة موسوعة «مصطلحات فكرية» ، وموسوعة «مفكرون من عصرنا» ، اللذين صدرتا عن المكتبة الأكاديمية ، التى تتبنى إصدار الكراسات .

وفى هذه الكراسة يتعرض الصديق العزيز الأستاذ سامى خشبة إلى موضوع «الميديا والتحديث» برؤية تحليلية ونقدية نحن فى أشد الحاجة إليها ، لتستوعب معطيات العالم المعاصر والتوجهات الكبرى التى تحكم تغييره المتسارع ، أو التى «تنهمر علينا» كما ذكر المؤلف فى موضع سابق من مطلع تسعينات القرن الأخير .

إن مشروع الكراسات يرحب بانضمام مفكرنا المتميز إلى أسرته ، ويرجو منه المزيد .

احمد شوقي

يناير ٢٠٠٢

الصفحة

الموضوع

المحتويات

- ١ - بعيداً عن جريمة «النبأ» الفكر المعاصر و «الميديا» ..... ٩
- ٢ - توحيد الأمم والتعبير عن تنوعها باللغة القومية ..... ١٣
- ٣ - أ - الثقافة ووسائل الإعلام .. التراث لا يذوب فى الهواء ! ..... ١٧
- ٣ - ب - وسائل الإعلام والتراث : الإتصال عبر الزمان ! ..... ٢١
- ٤ - تأسيس العولمة : البحث فى الأرشيف الليبرالى .. والاشتراكى ! ..... ٢٥
- ٥ - تأسيس الكيان القومى ومعاكسته : الإعلام يسبق التعليم ! ..... ٢٩
- ٦ - العولمة الإعلامية : شارع الإتجاه الواحد أم المسارات العديدة . ..... ٣٣
- ٧ - إكتشاف دور الإعلام فى تفاعل الثقافات .. وتذويبها! ..... ٣٧
- طوفان الميديا ... ومنطق الحكمة ..... ٤١

obeykandi.com

(١)

## بعيدا عن جريمة «النبأ»: الفكر المعاصر و«الميديا»

لا يأتي هذا الحديث بمناسبة - ولارد فعل - للجريمة الإعلامية المشينة والمريية التي ارتكبتها جريدتا «النبأ» و«آخر خبر» وصاحبهما ، بكل ما أحاط به وبهما من شبهات بحثها القضاء المصرى وأصدر حكمه بشأنهما ، بعد أن أصدر الضمير الوطنى المصرى النقى والذكى حمكه الفورى بشأن الجريمة ومرتكبيها ؛ هذا الضمير المتمثل فى رأى العام المصرى الذى أعلن من فوره إدانته وإرتيابه ، مؤكداً أن : «ليست هذه هى الحرية التى نريدها ، ولا هذه هى المعرفة والحق فيها - وهما من الأسس الأولى للديموقراطية - التى نحث الخطى ونبذل الجهد لاستكمالها وإستكمال شروطها» .

لقد أصدر الضمير الوطنى المصرى النقى والذكى حكمه الفورى بالإدانة للجريمة ومرتكبيها ، وهو الرأى العام الذى يمثله ويعكسه الإعلام المصرى الوطنى بكل مؤسساته ومنابره وملاكه ، ونقابة الصحفيين ، بذات القدر الذى مثلته مواقف مؤسساتنا الأمنية ، ويقدر ما مثلته غضبة الشباب المصرى الذى خرج يؤكد إيمانه بسلامة وطهارة الكنيسة القبطية المصرية ذات التراث الوطنى السياسى والثقافى والتربوى العريق .

لا يأتي هذا الحديث «رد فعل» لتلك الجريمة أو السقطة المشينة والمريية التى سارت فى ذات الطريق (استهدفت بوعى وتدبير ؟) الذى سلكه الإرهاب المتلفع بعباءات دينية ؛ ساعية (قصدا ؟ أم دون قصد ؟!) إلى هدم الأساس الرئيسى لتماسك البنية الإجتماعية المصرية ، والمتمثلة فى وحدة النسيج البشرى لأبناء الوطن الجامع - فى ضفيرة محكمة - بين دينين سماويين صدرا من منبع واحد ثم تمازجت فى بوتقة هذا «الوطن - الجامع / المجتمع» وانصهرت (توحدت ؟) عشرات بل مئات التفاصيل التى تتجسد فيها ثقافتنا المشتركة الموروثة التى يعيشها الجميع ويعيشون بها ويتعايشون .. لا يأتي هذا الحديث رد فعل لتلك السقطة المشينة والمريية، وإن كانت بما أثارته من مناقشات متعمقة ولماحة أو من انفعالات وشعارات سطحية وساخنة - ومن آراء ، بشأن مستقبل «الحرىات» المدنية عندنا ، قد فرضت التعجيل بطرح قضية : الاعلام - أو ما أصبح يعرف بكلمة : «الميديا» - والتحديث فى بلادنا ، وذلك فى ارتباط بكل ما يتعلق بالتحديث المصرى من جوانبه المتعلقة بتطويره وبناء «ثقافة مصرية حديثة» أصيلة .

ويفرض علينا هذا التعجيل نفسه أن ندخل «تعديلا» مهما على المنهج الذى

اتبناه في كتابات سابقة<sup>(\*)</sup> في معالجة قضايا التحديث المصرى فى مجالات : التعليم والتشريع والتصنيع ونقل أو : «تجديد» ما ليس فى بلادنا من العلوم - بعبارة الشيخ حسن العطار قبل مائتى عام .. إلخ .. ذلك أننا إذ نطرح قضية : «الإعلام والتحديث» لن نبدأ بالتاريخ رغم أهمية المفارقة - أو الفوارق بين بداية دور الإعلام فى المجتمعات الأوروبية السابقة إلى التحديث وبين بداية ودور الإعلام فى بلادنا منذ طبعت الحملة الفرنسية منشورها الأول ليوزع على المصريين قبل النزول فى العجمى واقتحام الاسكندرية - حتى إصدار محمد على باشا «الوقائع المصرية» بالتركية ..

لن نبدأ بالبحث فى دلالات هذا التاريخ وتأثيره على تطور تكوين البنية الإعلامية وعلى دورها فى بلادنا - لأسباب ليست ضرورة التعجيل سوى السبب الأول منها ، وإن لم تكن هى السبب الرئيسى .. وهذه هى الأسباب :

\* تؤكد كل الدراسات العلمية النقدية المعاصرة عن مجتمعات العصر الذى تتعدد تسمياته أو توصيفاته : عصر المعلومات ، أو المعرفة ، أو الاستهلاك الواسع ، أو عصر انتصار الليبرالية ، أو عصر ما بعد الحداثة ، أو الحداثة الجديدة المعدلة أو عصر : العولمة - أو سيادة القطب الواحد - الاقتصادية والثقافية .. تؤكد كل هذه الدراسات من اتجاهات مختلفة فى التيارين الفكرين الرئيسيين فى العالم الآن : اتجاهات تيار «ما بعد الحداثة» واتجاهات التيار «النقدى» فى إطار ما صار يعرف بالنظرية الثقافية .

تؤكد كل هذه الدراسات أن «الإعلام» المرئى والمسموع والمطبوع المقروء قد اكتسب أهمية هائلة منذ ثلاثينيات القرن العشرين ويكتسب المزيد منها - بسبب تزايد سهولة وسائل الاتصال والمواصلات والثورة التكنولوجية (ثورة الاتصالات .. إلخ) وتزايد نسبة الوعى العام بأهمية متابعة «الأحداث» لإدراك تأثيرها على الحياة اليومية ..

\* وتؤكد الدراسات نفسها أن وسائل الإعلام التى يدعم بعضها بعضاً - ولا يلغى بعضها البعض بسبب ارتفاع معدلات ومستويات التعليم والوعى الاجتماعى - أصبحت - هذه الوسائل - أكثر أهمية بكثير من مؤسسات التعليم ومن مؤسسات التربية (حتى الدينية) التقليدية ، بحكم سرعة انتشارها الهائلة وتأثيرها الثورى على مستوى الجموع - المتفرقة أو المتشدة - وبسبب اعتمادها أكثر فأكثر على «الكليشيات» ذات المعانى الضيقة والمراوغة فى وقت واحد ، وعلى «الصورة» التى تماثل الكليشيات فى قوة التحديد السدالى والقدرة على المراوغة على حد سواء .

(\*) انظر كتابنا : « تحديث مصر : قراءة نقدية ومستقبلية » ، مكتبة الأسرة ؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠١ .

\* وتؤكد الدراسات نفسها ، أن وسائل الإعلام ، لم تعد «إعلامية» فقط ، أى لم تعد وظيفتها قاصرة على «الإعلام» بالأخبار ولا حتى بالأفكار أو الآراء ، وإنما أصبحت فى وقت واحد هى أهم وسائل ووسائط التثقيف ، والترفيه وصياغة أو (صوغ أو صنع) الذوق العام ، والتوجه السيكولوجى (النفسى) العام فى شتى الاتجاهات والمجالات : من الاختيار السياسى إلى اختيار أنواع الطعام أو الأزياء أو نوع ومستوى تقييم الإنسان لنفسه أو لمجتمعه أو للآخرين ، بما يمكن أن يؤدي إلى إلغاء أو تحييد تأثير المناخ السياسى والاقتصادى والتعليم والتربية والدين ، والمؤسسات المسؤولة التى تنتج هذا المناخ حتى لقد أصبحت «الميديا» هى الصانعة الرئيسية لهذا المناخ ؛ تؤثر على كافة المؤسسات الأخرى وتقودها.

\* وأشياء أخرى كثيرة مهمة تؤكدها هذه الدراسات المليئة بالنماذج الفعلية أو الحقيقية ، والحريصة بمناهجها الجديدة على عدم «التعميم» حيث لكل مجتمع (لكل ثقافة) خصائصه ومميزاته .. على رأس هذه الأشياء تأكيد تطور معاصر للغاية بدأ منذ الثلاثينات مع ظهور ستالين وموسوليني وهتلر وروزفلت وتشرشل فى الدول الشمولية والليبرالية على السواء باكتشاف نظمهم للأهمية الهائلة للميديا (الصحيفة أو الجريدة ، أو الراديو حتى الجريدة السينمائية المصورة) ذلك ، هو التطور الذى لحق أولاً بالعلاقة بين ثلاثى : الإعلام والمجتمع والدولة .. ومنذ الخمسينيات ، ومع انضمام التلفزيون لمنظومة الميديا ، وتضخم ظاهرة «الجريدة الهابطة» المطبوعة - أصبح هذا الثلاثى رباعياً يتكون من الإعلام ، والمجتمع والدولة والحكومة (أحياناً تسمى : النظام) .. ولكن مع بدء تأثير «ثورة الاتصالات» فى عصر الفضائيات ثم الانترنت والصحافة الالكترونية طرحت الدراسات نفسها مسألة موقف الإعلام الوطنى (المحلى) من تأثير الإعلام «العولمى» الذى بدوره له علاقة متشابكة مع الدولة أو مع الحكومات أو (الأنظمة) التى ينتمى إليها أو إلى أجنحة اقتصادية / سياسية بعينها فيها ... لها مصالحها العليا التى تقتضى العبث بسياسات وثقافات وبمجتمعات الآخرين .

لهذه الأسباب كلها وغيرها ، وليس لمجرد سقطة «النبأ» الفاسق ، أصبح من الواجب أن نعجل بطرح قضية : الإعلام والتحديث .

obeykandi.com

(٢)

## توحيد الأهم والتعبير عن تنوعها باللغة القومية

توحيد الأمم (والمجتمعات) وجمع شتات فصائلها وأقاليمها وفتاتها وطبقاتها في إطار «وطني / قومي» متماسك يعد في الدراسات الاجتماعية المعاصرة نتيجة موضوعية أولى لتطور «الميديا» الحديثة ؛ وليس تمزيقها أو تعميق تمزقاتها القديمة . وترتبط بهذه النتيجة (التوحيد أو التماسك الوطني / القومي) النتيجة المقابلة - فيما يكاد يكون خطأ مستقيماً ، أى تمكين المكونات الاجتماعية / الثقافية للأمة الموحدة من تطوير «رموزها» ومفاهيمها والتعبير عن رؤاها وأرائها ومعتقداتها ومصالحها وخلافاتها واختلافاتها ؛ ثم إتاحة الفرصة لتلك المكونات الاجتماعية / الثقافية التي تتكون منها الأمة الموحدة للمشاركة في صياغة أسس التماسك الاجتماعي / الوطني القومي ، وفي صياغة الأفكار والتصورات التي تؤدي إلى إقرار السياسات الخاصة بإدارة شؤون الأمة (المجتمع الوطني القومي ومكوناته في وقت واحد) وللمشاركة في تطبيق تلك السياسات أو تنفيذها بالأسلوب الذي تتوصل إليه الثقافة العامة (الثقافة السياسية بوجه خاص) أى تأسيس مفهوم الديمقراطية وممارستها في هذا المجتمع الوطني / القومي الذي تشارك الميديا (المقروءة والمسموعة والمرئية) في صياغة وحدة مكوناته وتماسكها وتحديد معالمه لنفسه .

ولقد كانت «الصحافة» - أول وأهم أنواع «الميديا» أى وسائل الاتصال الجماهيرية - المقروءة - هي السبابة إلى القيام بالوظيفتين : التوحيد الوطني القومي والتعبير عن التنوع الاجتماعي / الثقافي معاً ؛ بحكم علاقتها المباشرة بكل من اللغة القومية (العربية في حالتنا) وبالمطبعة - أى الأداة التكنولوجية الحديثة التي ساعدت على انتشار كل من الكتاب ، ثم الصحافة / الدورية المنتظمة (جريدة أو مجلة ... الخ) ومعهما : التعليم باللغة القومية ذاتها .

في دراسته المهمة : «الميديا والحداثة» : نظرية اجتماعية للميديا» الصادرة عن دار نشر جامعة ستانفورد - كاليفورنيا عام ١٩٩٥ يقول جون تومبسون - أستاذ علم الاجتماع في جامعة كيمبريدج - إن تزايد أهمية اللغات المحكية قد ارتبط أيضاً بتدعيم أسس الدول القومية - التي كانت إحدى النتائج الكبرى الأولى لعملية التحديث ثم صارت الأداة الرئيسية لاستكمال وترسيخ التحديث وتعميمه ؛ وإنه في بعض الحالات فضلت السلطات السياسية في الدول الحديثة الأولى أن تنشط عمليات التوحيد اللغوي ، متبينة لغة قومية بعينها لتكون اللغة الرسمية للدولة . ويقدم لذلك مثالا بقرار الملك الفرنسي ، فرانسوا الأول عام ١٥٣٩ باعتبار الفرنسية لغة رسمية

للقضاء (المحاكم) في المملكة الفرنسية (ألا يذكرنا هذا بقرار محمد على باشا بطباعة «الوقائع المصرية» أول جريدة «مصرية» وأول بشائر «الميديا» الحديثة في العالم العربي - طباعتها باللغتين التركية والعربية معاً بعد عدة سنوات قليلة من صدورهما بالتركية - لغة الدولة / المجتمع المسيطرة إسمياً منذ قرون - أي تركيا العثمانية - ثم قراره بعد سنوات قليلة بطباعتها بالعربية فقط) .

يأتى تأكيد «الهوية القومية/ الوطنية» نتيجة موضوعية لترسيخ استخدام اللغة القومية في الصحافة - مرتبطة في ذلك بكل من التعليم ، والدعوة - أو التربية - الدينية ، وانتشار الكتاب المطبوع . يقول تومبسون : «يمكن تأكيد الرأى الراجح القائل بأن تثبيت اللغة المحكية (كلغة قومية / لا بد منها للتعامل مع مؤسسات الدولة ومؤسسات المجتمع / ولا بد منها لتواصل مكونات المجتمع وتعاملها بعضها مع البعض ولتواصل ومعاملات الأفراد على حد سواء) قد أدى إلى إنضاج الخصوصيات الثقافية للأمم - من إدراك لتاريخ مشترك إلى الولاء لرموز ثقافية وسياسية واحدة إلى وعى بالإنتماء للكيان الاجتماعى السياسى / الثقافى الذى تمثله تلك الرموز . وهذه هى المكونات الثقافية / النفسية لما نسميه : الهوية القومية . فالصحافة الدورية - اليومية والأسبوعية بوجه خاص - تستخدم اللغة القومية التى يتمكن التعليم والعمل الأكاديمى من «تثبيت قالب» موحد لها ، ومن إشاعة قدر معين من المعرفة بها ؛ وهى - الصحافة - تستخدم هذه اللغة القومية الموحدة والمثبتة - يومياً ، وتوزع وتنشر استخدامها على نطاق واسع وبشكل فوري ، فى وقت واحد تقريباً .. للتعبير عن كل موضوعات ومجالات الحياة العملية ، والذهنية .. وليست هناك أداة اجتماعية أخرى قادرة على كل من التوحيد الفكرى النفسى / وعلى إشاعة وتعميق الشعور بالتنوع - الاجتماعى / الثقافى والعملى فى إطار الوحدة «الوطنية» أكثر من هذه الأداة : إن هذا الشعور بالوحدة المتماسكة ذات التنوع الخصب إنما ينبت فى ذات التربة التى نبت فيها الإنتماء إلى «هوية» وطنية واحدة متميزة عن غيرها ، وبخصوصيات هذه الهوية أو خصائصها المميزة .

تستخدم الصحافة - المقال السياسى والاجتماعى والثقافى والخبر والتعليق السريع والحوارات والندوات والتحقيق الإخبارى أو التحليلى وكل ميادين الإنتاج المادى والذهنى - كما تستخدم الإبداع الأدبى ، والنقدى والصورة (إضافة إلى المادة الإعلانية - ذات الطابع الإخبارى - والتجارى معاً بالطبع) .. باللغة القومية المثبتة (بتشديد الباء وفتحها) والموحدة (بتشديد الحاء وفتحها ، وكسرها أيضاً) يومياً . وفى بقية الوسائط (الميديا المسموعة والمرئية) تستخدم اللغة القومية لمدد تتجاوز عشرات الساعات - أو مثاتها - وعلى نطاق شامل للجماعة القومية التى كانت «الميديا» هى أول وأقوى من حفز إحساس أبناء كل مجتمع / ثقافة معينة بأنهم «أمة» واحدة أو

جماعة قومية وطنية واحدة لها خصوصيتها أو خصائصها المميزة (بتشديد الياء وكسرها) .

فى كتابه : «الجماعات المتخيلة : تأملات فى أصول القومية وإنتشارها» - الطبعة الثانية - نشر فيسرو - لندن ١٩٩١ - يؤكد الأستاذ بينديكت أندرسون عالم الاجتماع السياسى والثقافى الكبير - يؤكد دور الميديا المطبوعة - الصحافة - بوجه خاص ، فى إشاعة الاحساس لدى أفراد - وفئات - المجتمع الحديث بالانتماء إلى «هوية» ثقافية / سياسية واحدة بفضل الاستخدام الدائم الدورى المنتظم للغة القومية الواحدة؛ وهى اللغة التى تعود السلطة السياسية فى الدولة القومية الناشئة إلى استخدامها : فالدولة القومية لا تختار لغة من عندها ولا تستطيع ذلك - وإنما هى تختار اللغة التى يشيع استخدامها بالفعل فى المجتمع ، وتعمل على تثبيتها و «تقنينها» كمنظومة منهجية متماسكة يودى تثبيتها وإشاعة استخدام قلبها المنظومى الموحد إلى تثبيت أسس كل من المجتمع القومى والدولة القومية / الوطنية فى وقت واحد . ويقول أندرسون إن هذا الاستخدام المنتظم والدائم للغة القومية فى الميديا المطبوعة ، أدى ويؤدى إلى خلق مجالات اتصال مشتركة وموحدة وبالتالي إلى إشاعة إحساس أبناء المجتمع الواحد بأنهم يشكلون «جماعة/افراضية» لا يتعامل الجميع مع الجميع فيها تعاملاً مباشراً ، ولكنهم يعرفون أنهم - ويؤمنون بأنهم - على سبيل المثال : «مصريون» أساساً ، تجمعهم - بكل تنوع ألوانهم العقائدية أو الدينية أو المهنية أو الطبقية أو السياسية ... الخ ... «بنية» اجتماعية / ثقافية مشتركة واحدة هى : «المجتمع الوطنى» المصرى. إننا لا نرى مساحة «الوطن» الجغرافية (حتى من طائرة .. لن نرى سوى جزء محدود منها) .. ولكننا بفضل التعليم ، ثم «الميديا» تصور خريطته ونعرف معالمها وحدودها .. ويضيف أندرسون : «من الممكن تماماً أن نؤكد أن تكوين الجماعات القومية والإحساس الحديث المتميز بالانتماء إلى أمة تعيش فى إقليم محدد من الأرض ، قد ارتبط بتطور منظومات الاتصال الحديث (أى: الميديا) التى ساعدت الأفراد على الاشتراك فى رموز ومعتقدات واحدة تعبر عنها اللغة المشتركة ، وهو ما يكاد يعنى - ببساطة - المشاركة فى تراث قومى» .

تلك هى - باختصار وتبسيط شديدين - النتيجة الأولى الأساسية لممارسة الميديا - والصحافة فى مقدمتها باعتبارها الوحيدة التى تستخدم الشكل المكتوب - المثبت والموحد .. من اللغة القومية - لدورها أى : التوحيد الاجتماعى الوطنى / القومى .. والتعبير عن التنوع - تعبيراً عن التعارض والاختلاف أو عن الاتفاق والموافقة ، فى إطار الوحدة أو حتى ضدها أحياناً . فإذا مارست «مطبوعة» ما الدور النقيض : أى

التمزيق والحفر وراء تمزقات قديمة بائدة (مثلما فعلت مطبوعتا «النبأ» و «آخر خبر») فقد نكون على حق تماماً في أن ينزع عن سلوكها صفة «الصحافة» وعلاقتها بالميديا في إطار الفهم العلمى الاجتماعى لهذه المؤسسة الاجتماعية الحديثة المهمة .

غير أن إشارة أندرسون فى الفقرة الأ سبق إلى المشاركة فى «تراث» قومى تمهد لنا الطريق لاستعراض الجانب الأكثر أهمية - ربما بالنسبة لثقافتنا القومية - وذلك هو الجانب المتعلق بالميديا والتراث .

(٣) - أ

## الثقافة ووسائل الإعلام .. التراث لا يذوب في الهواء!

إذا كانت عملية توحيد الأمم والمجتمعات ، ثم التعبير عن تنوعها «الثقافي» بالمعنى العام لمصطلح «الثقافة» هي الوجه الأول الرئيسى للوظيفة «التاريخية» العامة لوسائل الإعلام الجماهيرية (أو : الميديا) وعلى رأسها وفى بدايتها «الصحافة» المقروءة ، وهو الوجه الذى يتحقق بواسطة نشر استخدام «اللغة القومية» .. فإن الوجه المقابل هو إنضاج العلاقة بين «المجتمع القومى» الجديد ، والذى أكسبته عملية «التحديث» بمستوياتها المتباينة قوة دفع ليس ضرورياً أن توجهه دائماً إلى الأمام ؛ وبين «ثقافته» السائدة من ناحية ، وإنضاج العلاقة بين هذا المجتمع ذاته فى كليته وبين مكوناته أو مكونات «تنوعه» الداخلى من ناحية ثانية . وفى غمار عملية إنضاج هذه العلاقة بناحيتهما المتقابلتين وإظهارها على صورتها الحقيقية تتحدد مسائل كثيرة ؛ ليس أقلها أهمية نوع ومستوى تطور المجتمع القومى ذاته وثقافته (قدرتهما المشتركة المتبادلة على صياغة كل من الوحدة والتنوع معاً ، وقدرتهما على توجيه دفعة قوة دفع التحديث إلى الأمام ، لا إلى الخلف ولا إلى التمزق أو التشتت) . ثم نوع ومستوى العلاقة بين هذا المجتمع القومى - ومعه ثقافته القومية - الموحدة والمتنوعة فى إطار وحدتها وبين الميديا «غير» القومية ، أو «عابرة القوسيات» التى قد يتعين علينا أن نتحدث عنها بالجمع - فتكون «الميديات» .

وقد يكون من الواجب فى البداية أن ننوه بعدة حقائق مهمة تتعلق بالفكر الاجتماعى المشغول بدراسة الميديا .

أول هذه الحقائق أن هذا الفرع من الفكر الاجتماعى قد نشأ حديثاً فى أواخر الخمسينات فى الغرب الصناعى المتطور (الليبرالى أو : الديمقراطى) .. والحقيقة الثانية هى أن هذا «الفرع» قد نشأ مرتبطاً بالدراسة الاجتماعية «النقدية» للثقافة ودورها - ووضعها فى التطور الحدائى الاجتماعى «السياسى» فى إطار ما أصبح يعرف بالنظرية الثقافية (فى بريطانيا : رايموند ويليامز ومدرسته ، وفى ألمانيا يورجين هابرماس وتلامذته - ونقاده - فى مدرسة فرانكفورت ؛ وفى الولايات المتحدة هارولد إينيس وتلميذه ثم زميله - الأكثر شهرة - مارشال ماكلوهان ... الخ) .. وقد كانت لهذه النشأة - لهذا الفرع - مبرراتها (وهذه هى الحقيقة الثالثة) فالإيديا - على حد ما اكتشفه ويليامز وإينيس وهابرماس مبكراً - لم تعد - وربما لم تكن أبداً - مجرد ناقل للأخبار والآراء والنماذج .. الخ . وإنما أصبحت منذ أواخر القرن ١٨ أهم ناشر للمعرفة : المعلومات والأفكار والتوجهات العامة المختلفة ، أو المتوافقة فديهما

والجديد ، وأهم صانع للأذواق وللآراء وللإختيارات الإنسانية - الفردية والجماعية - من كل نوع ، أى أنها أصبحت فى هذا العصر الحديث أهم «عامل» أو «فاعل» Actor ثقافى (اجتماعى / سياسى) على الإطلاق .

أما الحقيقة الرابعة ، فهى ما اكتشفه ويليامز وهابرماس - وكل من طريق مختلف ، وإن كان أثر تراث الفكر الليبرالى البريطانى واضحاً عند الأول (توماس هوبز بشكل خاص) بينما يبدو أن «إبداع» الليبرالية الألمانية - الجديدة نسبياً - واضحاً عند الثانى (كارل بوبر فى كتابه : المجتمع المفتوح وأعداؤه : أفلاطون وهيجل - بشكل خاص) . اكتشف الإثنان أن «الميديا» تنقلب إلى أداة عاتية قد تحطم كلاً من هذه الوحدة القومية والتنوع الاجتماعى الذى يكون تلك الوحدة - بالتفاعل الحر - إذا وقعت فى أيدى أعداء المجتمع الحر والثقافة الحرة ؛ أى إذا وقعت فى يد : إما الدولة الشمولية أو القوى الاقتصادية / السياسية / البيروقراطية المتضخمة التى قد تستولى على قوة الدولة أو تزيحها وتحل محلها أو من أسماهم ويليامز : «مثقفى الغوغائية» demagogic (ism) Inrelectuals ومن حددهم ريمون أرون أكثر باسم : المتطرفين» من كل اتجاه الذين تؤدى غوغائيتهم أو ادعاءاتهم المتطرفة ودعاياتهم المعتمدة على تصورات بعينها عن كل من «الثورة» فى جانب و «التراث» فى جانب آخر : تؤدى إلى إحداث شروخ دامية فى بنية المجتمع القومى الموحد .

\* \* \*

غير أن هذه النشأة نفسها لعلم اجتماع الميديا فى أحضان علم اجتماع الثقافة والدراسات الثقافية - وما كشفه هذا العلم من حقائق ، هى التى قد تساعدنا نحن الآن فى مصر والعالم العربى وربما فى العالم الثالث كله - على اكتشاف الفوارق الكيفية الأساسية بين مختلف أدوار ووظائف الميديا فى إطار الثقافات المختلفة والمتنوعة وخضوعاً لخصوصيات كل ثقافة - أو كل مجتمع - قوميين .

ومع ذلك فإن الدراسات : «الاجتماعية / الثقافية» عن الميديا فى الغرب ، هى التى بدأت إكتشاف ونقد - أخطاء التصورات التقليدية فى النظريات القديمة (من القرن ١٩ أو أوائل الـ ٢٠) عن كل من الثقافة وعلاقتها بالحدثة - وهى التصورات التى دأب المؤرخون وعلماء الاجتماع على ترديدها حتى أواخر خمسينات القرن العشرين (وظلت ثابتة عندنا لا تتغير عند الكثيرين وربما حتى الآن) بسبب طغيان تأثير الفكر التقليدى وتفسيراته لمصير ووضع «الثقافة» ودورها ، وتأخر إكتشاف الفكر النقدى المعاصر وواقعيته فى نقده للنظريات التقليدية من ناحية ، وفى إكتشافه لما أصبح يعرف بـ «أعلمة الثقافة» Mediazisation of cultur أى صبغ الثقافة بالصبغة الإعلامية وإخضاعها لمتطلبات و «لغة» الإعلام وتوجهاته وتقنياته . من

ناحية أخرى . كانت النقطة المحورية لهذا النقد وبالتالي لتجاوز تلك النظريات فكرياً وعملياً هي : العلاقة الفعلية للميديا بالتراث Tradition وهي العلاقة التي أظهر الواقع الفعلي أنها جاءت مناقضة تماماً لما تصوره الفكر الاجتماعي التقليدي القديم عن التراث نفسه .

\* \* \*

في كتابه : «الميديا والحدائثة : نظرية اجتماعية للميديا» يشير جون تومبسون إلى أن كارل ماركس كان صاحب التأثير الأكبر والأول على الفكر الاجتماعي منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وخاصة فيما يتعلق بمصير «التراث» في ظل تطور الحدائثة . كان ماركس شديد الإيمان بما أكده فلاسفة التنوير في القرن ١٨ -- عن أن التراث شيء ينتمي إلى الماضي - وأنه سوف يندثر بسرعة مع تقدم العقلانية والرؤية العلمية للعالم باعتبار أن التراث يعبر عادة عن رؤى غيبية أو «لا أدرية» وما يشبهها إزاء العالم والمجتمع أو التاريخ والفرد ؛ فأضاف ماركس إلى هذه الرؤية تأثير «الرأسمالية» وعلاقات الانتاج وقوى الانتاج الجديدة ، بكل من نشاطها المتزايد وتوسعها المستمر بما سيؤدى - في رأيه - حتماً إلى اختفاء «التراث» وعقليته - مع اختفاء البناء الاجتماعي القديم ونظمه الإقطاعية .. الزراعية ، .. إلخ.. وعلى ذلك، وعلى حد العبارات المشهورة لماركس وإنجلز (زميله البريطاني الأقل مكانة) في «البيان الشيوعي» فإنه : «سوف تكتسح كل العلاقات الثابتة المتجمدة . وما يتبعها من أهواء وآراء عتيقة بالية ، وسوف تتقدم الجديدة قبل أن تتحجر . كل ماهو صلب يذوب في الهواء ، وكل ماهو مقدس ينتهك (يدنس) ويرغم الإنسان في النهاية على أن يواجه بحواسه الواعية ظروف (أو : شروط) حياته الحقيقية ، وعلاقاته بجنسه» .

وإذا كان المفكر وعالم الاجتماع الألماني الكبير الآخر ماكس فيبر - الذي جاء بعد ماركس بنحو ربع قرن ، وصار صاحب ثاني أكبر تأثير في الفكر الاجتماعي / الثقافي التقليدي بعد ماركس نفسه ، إذا كان قد أعطى للتراث - بعد تجديده في صورة العقيدة البروتستانتية - دوراً في تشجيع كل من الرأسمالية أو التصنيع والحدائثة، فإنه من ناحية لم يتوقع الكثير من النظام الاقتصادي الانتاجي الرأسمالي كما توقع ماركس ، ولكنه رأى - مثل سلفه - أن التراث سوف يندثر مع الماضي في النهاية ، دون أثر يذكر في مجتمعات الحدائثة الجديدة .

\* \* \*

ولكن قبل أن يموت كارل ماركس ، وفي أثناء حياة ماكس فيبر كان الواقع يثبت خطأهما معاً ؛ فالتراث (كل ما هو صلب) لم يتبدد ذائبا في الهواء . وكان للميديا - وللصحافة بالذات - دورها الأساسي في الحفاظ عليه ، وفيما هو أكثر : أى فى إعطاء التراث حياة باقية طويلة ، من خلال إعادة نسجه - كما هو أو بعد تجديده - فى «تضاعيف» المجتمعات الجديدة أو المتجددة وخلاياها ، الأمر الذى جعل للتراث دوراً لم يكن بوسع الفكر التقليدى أن يتوقعه ولا أن يكتشف أهميته لكل من الميديا ، وجماهيرها .

(٣) - ب

## وسائل الإعلام والتراث: الإتصال عبر الزمان!

ربما كانت عملية إعادة إنتاج «الثقافة» وإقامة شبكات اتصال وتوصيل متزايدة الاتساع ومتراصة لضمان كفاءة وشمول «التوزيع» رأسياً وأفقياً - للنتاج الثقافي المتصاعد الكثافة والتركيب - هي أخطر العمليات - أو الوظائف - التي تقوم بها وسائل الاتصال الجماهيرية ، أو وسائل الإعلام ، أو «الميديا» في المجتمع (العالم) الحديث والتي أسهمت بها «الميديا» في عملية «التحديث» بمستويات مختلفة من العمق ، والتأثير ، والشعور بالمسؤوليات الاجتماعية التي تتحملها . إنها الوظيفة التي تطلق عليها الدراسات الثقافية / الاجتماعية المعاصرة تعبير : «أعلمة الثقافة» والتي تتضمن بالضرورة «أعلمة التراث» .

وهي وظيفة تتصل اتصالاً مباشراً بتحول المجتمعات إلى مرحلة ، أو حالة المجتمع القومي الموحد - ثقافياً وسياسياً واقتصادياً ، الذي «اختاره» بوعيه - أى : بوعي أبنائه في أجيالهم المتتالية ، وإبرادتهم - أن يتماسك موحداً جامعاً لكل «تنوعه» الاجتماعي وبكل مصادر وأسس ذلك التنوع - في إطار وحدته «الوطنية» التي تخلقت بفضل تفاعل «المشترك» الثقافي في إقليم متصل ، لكي تقيم بالإرادة الجماعية لكل أطراف التنوع ، الدولة القومية الخاصة بهم .

وإذا كانت «شبكات المواصلات» والاتصالات المادية من الطرق المعبدة وقنوات الري والنقل النهري والسكك الحديدية وشبكات البريد وكابلات التلغراف والتليفون هي وسائل التماسك المادي للمجتمع القومي لنقل وتوزيع المنتجات المادية والمراسلات والمكاتبات العملية والأوامر والتوجيهات الإدارية والسياسية - في النطاق الجغرافي المكاني للوطن .. فإن شبكات الميديا هي التي أصبحت في المجتمع الحديث وسيلة (أو : وسائل) التماسك المعنوي للمجتمع القومي ذاته عبر نشر وتبادل وتوزيع كل تجليات «الثقافة» . ولأن ذلك يتم في إطار «الوطن» فإن شرط الحفاظ على تماسكه ، وعلى إطاره الموحد هو أن يتم ذلك النشر على أساس عدم المساس - إن لم يكن «الاحترام» الكامل ، والحقيقي لا المفتعل - لأسس ومصادر «التنوع» بكل ما يمكن أن يقوم أو أن يكون بينها من اختلافات . وهو احترام لا يكفله - في الميديا - مجرد «القانون» المكتوب وإنما يكفله الاختيار الإرادي الأصلي ، الواعي لكل أطراف «التنوع الموحد» : القومي اختياراتهم لأن يقيموا دولتهم القومية - وأن يعيشوا ، لا مجرد أن يتعايشوا - في ظلها ، وأن يعرفهم العالم باسمها .. وهو «الاختيار» الذي يحوله «العقل التشريعي» للمجتمع إلى قانون مكتوب وملزم .

أى إن «الميديا» بفضل أعلمة الثقافة و «أعلمة التراث» بالتالى تصبح - وقد أصبحت - هى الوسيلة الرئيسية لاتصال «الأمة» أو الجماعة القومية بذاتها أو بنفسها ، متجسدة فى أجيالها المتتالية وبالإنسانية .. عبر الزمان - أو عبر طبقات التراث فى كل ثمار وتجليات أزمنته وعصوره المتتالية المتلاحمة والمتنوعة التى يضمها فى الوقت ذاته إطار متماسك من «المشترك الثقافى» القومى الواحد .

\* \* \*

ولم يعد ارتباط الميديا بالتراث - وبالثقافة فى كل تجلياتها - فضلاً من جانب الميديا ولا فضولاً ، كما أنه ليس ارتباطاً أحادى التوجه أو أوحدى النيات .. إنما فرض ارتباط الميديا بالتراث - بكل تجلياته وبكل المواقف «المتضاربة» إزاءه - الطبيعة الجماهيرية للميديا ذاتها أولاً ، ثم حقيقة أو بديهية ارتباط الميديا بظهور وتطور «الدولة القومية» التى هى انتاج «جماهيرى» أساساً ، مهما قيل بغير ذلك . الميديا (وسائل الاتصال الجماهيرية) لا بد أن ترتبط بالتراث ، وبكل المواقف «القومية» المتضاربة إزاءه ، لأنها مرتبطة بالجماهير ، والجماهير مرتبطة بالتراث .. غير أن ارتباط الجماهير بالتراث ليس ارتباطاً بين كتلتين جامدتين أو ساكنتين . فالجماهير تتغير بفضل التطور العام - أى التحديث ذاته : بالتعليم ، وبتسهيل الانتقال وتغيير الأعمال والمهن والسكن ووسائل الترفيه والتحول من المستوطنات البشرية المغلقة القديمة فى القرى والنجوع والكفور والحوارى ذات الأبواب إلى وطن مفتوح للحراك المكانى والاجتماعى والثقافى لكل المواطنين فى الدولة القومية .. والتراث يتغير أيضاً بفضل تغير - وتنوع - عقليات الجماهير التى تتبناه وتتلقاه وتركن إليه وتستخدمه وتفسره : بين اتجاه إلى تجميده أو إلى إعادة انتاجه كما كان أو اتجاه إلى إعادة اكتشافه أو إلى تفسيره أو حتى نقده وتجاوزه .. غير أن «عقل» الميديا يظل مرتبطاً بكل هذه المواقف إزاء التراث (إزاء الثقافة عموماً) لا يملك عنها انفصلاً وإلا فقدت الميديا صفتها ووظيفتها الرئيسيتين : كوسائل جماهيرية للاتصال ثم كوسائل تثقيف وتوجيه وتعبير وتصنيع الأذواق والاختيارات لدى الجماهير .. شرط واحد لهذا الارتباط - يفرضه على الميديا الاختيار الأصلى من جانب «الجماهير» بالانتماء للوطن وبناء دولته (دولتها) القومية ، هو الاحترام الكامل لأسس ومصادر التنوع ، الذى حوله العقل التشريعى للوطن (للجماعة القومية) إلى قانون ملزم .

\* \* \*

ولكن لأن الجماهير تتغير (تتطور) والتراث يتغير بدوره (يضاف إليه ؛ يحذف منه ؛ يعاد اكتشافه أو تفسيره فى أضواء عديدة ، أو حتى ينتقد .. الخ) .. لذلك فقد رأى بعض الدارسين المعاصرين لقضية : «الميديا والحداثة» أن للتراث أربعة جوانب

(أو : وظائف) على الأقل تفرض على الميديا أن ترتبط به : فالتراث بكل «طبقاته» المعرفية والفكرية - يقوم بوظائف «تفسير العالم» وتوفير قاعدة لتشكيل السلوك الفردي والجماعي وتبريره ؛ وهو يوفر قاعدة للشرعية الاجتماعية : الشخصية والسياسية والاقتصادية والقانونية ؛ وهو يوفر الإطار والقاعدة اللتين تقوم عليهما أسس «الهوية» على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة (ويلبور شرام : وسائل الاتصال الجماهيرية والنمو القومي ؛ دار نشر جامعة برينستون ١٩٦٤ Wilbur Schramm, "Mass Media and National Development" Princeton Uni : P. 1964) في ضوء هذا التحديد لوظائف التراث - الذى يقترحه واحد من أبرز من درسوا علاقة الميديا بكل من التحديث والتراث - سوف يمكننا أن نلاحظ فوراً تضاؤل دور التراث فى تشكيل السلوك وتبريره وفى توفير قاعدة الشرعية فى المجتمعات الغربية . ولكن هذا الدور يتعاضم أو يبقى كما هو فى مجتمعاتنا نحن رغم كل مظاهر «الحداثة» (\*) غير أنه فى المجتمعات الغربية الحداثية أيضاً يحتفظ التراث بوظيفتى : تفسير العالم وتأسيس قاعدة الهوية والانتماء القومى ، وهما الوظيفتان اللتان تتزايدان عندنا أيضاً . كذلك فإن التراث الذى فقد فى المجتمعات الغربية طابعه المحلى (القروى أو الاقليمى) بل شرع يفقد جزءاً من طابعه القومى لكى يصبح «غريباً أحياناً ، أو : أوروبياً ، أو أنجلو أمريكياً (وقد يسمونه أحياناً : عالمياً !!) ويتحول بسبب الطابع التصنيعى ، أو الافتراضى الوهمى Virtual (التليفزيونية خصوصاً) إلى مجموعة من الرموز العامة المجهلة وغير الشخصية أو المحددة .. فإنه على العكس عندنا يظل برموزه المحددة ودلالاته القديمة الدائمة لأنها أبدية ولكنها المسكونة بما هو قائم.. هنا والآن ، يظل تراثاً «معاصراً» مثلاً للعيون حقيقياً وفاعلاً .. يكفل للميديا أن تقوم بدور الاتصال «عبر الزمان» بين طبقات التراث وبين الأجيال وبين المواقف المتضاربة إزاءه فى وقت واحد وهو وضع يكفى وحده لاكتشاف خطأ مكارى ماركس وماكس فير كليهما أن كل ما هو صعب (أى التراث) يذوب فى الهواء .

ولاشك أن هذا يعنى أن : «أعلمة التراث» أى إخضاع التراث لشروط الميديا (الإعلام) واحتياجاتها تخضع من ناحية لخصوصيات كل ثقافة ، وتحتاج من ناحية أخرى إلى قانون ملزم يحفظ للمجتمع القومى حقه فى حماية اختياره الأصلى بإقامة وطن واحد ، ودولة قومية واحدة لكل مواطنيه ، خاصة مع ظهور الميديا عابرة القوميات التى تعد الآن أخطر مظاهر العولمة وأخطر ما يهدد بتحويل التنوع إلى تمزق على الأقل .

(\*) أرجو الرجوع إلى كتاب : تحديث مصر قراءة ثقافية ومستقبلية وإلى كتابات مهمة أخرى (عن : حسين أحمد أمين ؛ جلال أمين ؛ فوزى فهمى ؛ سمير حنا صادق ؛ وآخرين) لاكتشاف مدى سطحية ونقص عملية «التحديث المصرى» .

obeyikandi.com

(٤)

## تأسيس العولمة : البحث في الأرشيف الليبرالي .. والاشتراكي !

منذ العقد الثاني للقرن العشرين - على الأقل - راحت وسائل الاتصال الجماهيرية .. أو : الميديا - وعلى رأسها الصحافة والإذاعة والسينما أيامها - تلعب أدواراً «سياسية / ثقافية» متضاربة ، تتحدد وفقاً للسياق الاجتماعي / السياسي / الثقافي الذي تعمل في إطاره ، ووفقاً للوضع القانوني / السياسي الذي سمح لها : التكوين السياسي لكل مجتمع (أو دولة) أى ذلك الوضع الذي فرضته على الميديا القوى الفاعلة في المجتمع المعين .

ولأن الدول (أو : المجتمعات) القومية كانت قد أصبحت هي الإطارات الجامعة للمجتمعات البشرية ذات الثقافات المتميزة ، فإن النظم السياسية السائدة أصبحت بسرعة هي الطرف المؤثر الثاني - بعد التكوين الاجتماعي / الثقافي المؤسس للدولة القومية في تحديد وضع الميديا ودورها : ليس فقط تعبيراً عن نوع النظام الاقتصادي السائد - والمرتبط بنوع النظام السياسي ، وإنما أيضاً - وربما أولاً - تعبيراً عن نوع «الثقافة السياسية» السائدة بوصفها جزءاً عضواً من الثقافة القومية (في رأى بعض تيارات الفكر الاجتماعي المعاصر) أو بوصفها تعبيراً عن مرحلة محددة من مراحل تطور تلك الثقافة القومية في نظر تيارات أخرى .

وبذلك فإن عملية أعلمة الثقافة Mediazisation of Culture - وأعلمة التراث بالتالي - أى صبغهما بالصبغة الإعلامية وإخضاعهما لشروط اللغة الإعلامية - لم تكن عملية ذات طابع واحد ولا أسلوب أو اتجاه واحد ، وإنما اختلفت الأساليب والاتجاهات في «أعلمة» كل من الثقافة والتراث ، بقدر اختلاف نوع النظام ، والثقافة السياسيين السائدين ، ومصالح الدولة أو المجتمع القومي ودرجة تطور كل أو أى منها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي .

سوف يدهش أو قد يصدم القارئ إذا أتاحت له - على سبيل المثال - مراجعة سريعة لأرشيفات صحافة الدول الليبرالية (أو : الديمقراطيات) الغربية الكبرى في تلك العقود الأولى من القرن العشرين (في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة مثلاً) .. بقدر دهشته أو صدمته إذا أتاحت له فرصة مراجعة أرشيفات صحافة الدولة «الاشتراكية» الوليدة آنذاك (الاتحاد السوفيتي) وخاصة إذا تركزت هذه المراجعة على ما تحتفظ به تلك الأرشيفات من مواد منشورة عن شعوب وثقافات «المستعمرات» في لغة «ميديا» الدول الليبرالية الديمقراطية ، أو عن شعوب وثقافات : «حركة التحرر الوطني» أو القومي في لغة «ميديا» الدولة السوفيتية .. خاصة إذا كانت مراجعتنا

تسعى إلى مقارنة ما كان ينشر فعلاً - فى هذه الميديا أو تلك من أخبار وتحقيقات و«أعمدة» أو مقالات رأى .. الخ بما كان يكتبه - وما يزال يكتبه البعض من «فلاسفة» الليبرالية أو الماركسية السوفيتية وكتاب هذه أو تلك النظريون - بشأن «حقوق» وأوضاع شعوب «المستعمرات» أو «حركة التحرر الوطنى» - أو القومى ومستقبلها .. (هذه المواد الإعلامية) وأرشيفاتها ، متاح معظمها الآن من خلال شبكة الإنترنت ، على مواقع مؤسسات إعلامية وأكاديمية عديدة فى أوروبا الغربية بشكل خاص) .

كانت تلك هى المرحلة التى اكتمل فيها تكوين الأسس الرئيسية للعمولة فى مرحلتها الأولى بجانبها المتنافسين آنذاك - أو المتصارعين : الليبرالى - الديمقراطى المرتبط بنظام السوق الاقتصادى (المشروع الحر ، الفردى الرأسمالى المنفصل) والاشتراكى الذى كان ستالين يحوله بسرعة إلى نظام احتكار الدولة والبيروقراطية الحزبية لكل «أدوات الانتاج» والتوزيع .

فى الميديا «الليبرالية» لن نجد كلاماً عن حقوق الإنسان ولا عن حكم القانون ولا عن المساواة والاحياء والحرية .. إلى آخر «المبادئ» الرائعة والنبيلة التى بشر بها فلاسفة - وسياسيو «التنوير والعقلانية» الليبرالية (من جون لوك إلى مونتسكيو .. الخ) ولكنك سوف تجد كلاماً كثيراً عن الانحطاط والهمجية - الأمر الذى يفرض على هذه الدولة «الديموقراطية الغربية المتقدمة» أو تلك أن تتولى تربية هؤلاء الهمج من الهنود أو المصريين أو بدو شمال أفريقيا أو زوجها أو «المولدين» فى أمريكا الجنوبية ... الخ أو تحضيرهم .. فإذا لم تنفع التربية بـ : «الحسنى» فلا بأس من القمع بالقوة .. وفى بعض الأحيان كما حدث مع قبائل الزولو المحاربة الشجاعة فى الجنوب الأفريقى - أو مع زواج أستراليا - لا بأس من الإبادة ..

يقابل الكلام عن الإنحطاط والهمجية - وهو كلام عن «الثقافة» وعن «التراث» الخاصين بشعوب «المستعمرات» - كلام آخر كثير عن حق هذه الدولة الغربية الليبرالية أو تلك فى منتجات وأسواق بلاد هذه الشعوب «المنحطة» أو «الهمجية» بالذات ، وعن المشاكل والمنازعات المترتبة على تقسيم أو توزيع الأسواق والمنتجات الزراعية والمعدنية ومصادرها وعن تقسيم السيطرة على المواقع المهمة (استراتيجياً) لطرق الملاحة والتجارة على اتساع الكوكب بأكمله من بنما إلى طارق إلى السويس إلى المنذب إلى الكاب ومالاجا أو هرمز ... الخ ومن بورت آرثر إلى هاواى أو مانىلا إلى سانتياجو إلى الكاب مرة أخرى أو لاجوس أو كيبفيرد إلى مدغشقر أو زنبار أو عدن إلى بومباى إلى سنغافورة إلى هونغ كونج وبورت آرثر ثانية ... الخ .

على الجانب الآخر ، فى الميديا «الاشتراكية» لن نجد كلاماً لا عن التحرر الوطنى ولا عن تقرير المصير ولا عن «العدل الوطنى» أو المساواة والأخوة والأمية .. وإنما ستجد كلاماً عن :ضرورة تطوير البنى التحتية والفوقية الإقطاعية أو البدائية الرعوية إلى مستوى التعاون الاشتراكى والجماعية بقيادة كوادر الشعب الروسى الشقيق .. وستجد كلاماً عن ضرورة التوحيد الثقافى لشعوب الاتحاد السوفيتى بنشر (فرض) اللغة الروسية (وهو القرار الذى نفذته ستالين بالفعل عام ١٩٣٩ إلى ١٩٤٢) .. وعن ضرورة إنقاذ روح الأخوة الأمية بين شعوب الاتحاد من : همجية التتار المتأصلة، وبعد سنوات قليلة جاء دور الشيشان والقرغيز والأبخاز وغيرهم من شعوب القوقاز ... الأمر الذى اقتضى ترحيلهم (فى عربات الماشية بالسكك الحديدية) إلى أقصى شمال شرق سيبيريا (وقد تقتضى العلاقة المحتملة بين مفهوم : الأمية تحت هيمنة نظام شمولى من هذا النوع ، وما شابهه بعد ذلك فى ألمانيا النازية ، وبين مفهوم العولمة الاقتصادية/الثقافية... قد تقتضى هذه العلاقة دراسة خاصة) .

\* \* \*

بل إننا سنجد على صفحات المواد الثقافية فى أرشيفات الميديا المطبوعة - الليبرالية أو الاشتراكية على السواء - سنجد صورة صادمة - ولا نقول مزورة أو كاذبة - لتاريخ شعوب المستعمرات - السياسى والاقتصادى والاجتماعى ؛ والثقافى بشكل خاص ؛ حيث تتحول تواريخ تلك الشعوب العريقة فى الشرق الأوسط وآسيا الجنوبية والشرقية إلى سلاسل من الحكايات عن الفساد والطفيان والحسية الشبقية وإهدار الثروات الخيالية . والأقتتال الدموى - لا تقطعها سوى زيارات «حضارية» من رسل الغرب المتمدين من اليونان إلى روما إلى إيطاليا فأسبانيا ففرنسا فبريطانيا . بل إن التاريخ «الرسمى» لشعوب الاتحاد السوفيتى الذى أصدرته اللجنة الثقافية العليا للحزب الشيوعى السوفيتى مع مقدمة بتوقيع ستالين نفسه تزعم «بالنص» أن الشعب الروسى هو الذى علم شعوب وسط آسيا العريقة الكتابة والزراعة وأخرجهم من البداوة والهمجية!!

كل هذا إضافة إلى أن الباحث فى أرشيفات الميديا - الليبرالية أو «الشمولية» على السواء - سوف يجد تأكيداً على وجود أنموذج واحد للتحديث : الأنموذج الغربى : سواء كان بالتصنيع الرأسمالى المنفلت بسماته المشهورة فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى وبالتقسيم الحزبى للحياة السياسية واحتذاء المفاهيم القانونية الغربية (المتضاربة فى حد ذاتها) .. أو الأنموذج السوفيتى - بفرض ملكية الدولة تحت هيمنة مركز «عالمى» واحد للقرار السياسى والاقتصادى (نظرياً كان هذا المركز

مؤسسة جماعية ، ولكنه عمليا تجسد فى شخص واحد) و «تأميم» الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية تحت هيمنة هذا المركز (أو : الشخص) . ولكن فى أى من الحالتين الليبرالية الرأسمالية أو الشمولية (الاشتراكية) كانت وظيفة الميديا هى تكريس الأنموذج الواحد لما أسموه التحديث أو التقدم أو النمو بحيث يتم لصالح «المجتمع» أى : الثقافة / الأمة «المهيمنة» على «الهمج» فى المستعمرات ، أو على «البدائيين» فى أقاليم الحكم الذاتى والجمهوريات القومية داخل «الاتحاد» ! .

\* \* \*

فى تلك المرحلة ذاتها استكملت القدرات التكنولوجية الجديدة نسبياً آنذاك ربط أطراف الكوكب بشبكات البنية التحتية التى استخدمتها «الميديا» : شبكات كابلات البرق والتليفونات (لوكالات الأنباء) وشبكات النقل ومكاتب جمع الأخبار والأفكار والموضوعات وتوزيعها ، وشبكات دور السينما (قبل أن تقوم ثورة الألكترونيات بالقفزة النوعية الكبرى التى استثمرت فى التليفزيون ثم الأقمار الصناعية) . مما يعنى أن أسس العولمة الاقتصادية/ السياسية - التى أرساها نظام التوسع الاستعمارى الرأسمالى، الليبرالى أو الشمولى بالقوة المسلحة - قد سبقت ومهدت للمرحلة التالية التى امتزجت فيها مشروعات العولمة الاقتصادية / السياسية عن طريق الشركات عابرة أو متعددة الجنسيات مع مشروعات العولمة الثقافية والتى تلعب فيها «الميديا» جمع : ميديا - الدور الرئيسى، الأمر الذى يفرض على ميديا المستعمرات القديمة واجباً لا يمكن التنصل منه .

(٥)

## تأسيس الكيان القومي ومعاكسته : الإعلام يسبق التعليم !

طوال القرن العشرين ، وربما منذ أواخر القرن التاسع عشر ، كانت شعوب «المستعمرات» الواقعة تحت سيطرة الدول «الليبرالية» واقتصادها الرأسمالي «العالمي» كما كانت شعوب «القوميات الشقيقة» في «الوحدة الأممية» الموهومة الواقعة تحت سيطرة أنظمة شمولية متنوعة (اشتراكية / عنصرية : أو عنصرية / اشتراكية ، أو عنصرية رأسمالية ليبرالية ، لا فرق) .. كانت تلك الشعوب تكافح من أجل استقلالها والتحول إلى «كيانات قومية» متحررة ومستقلة .

وكانت عملية إحياء وتطوير ثقافتها القومية باسترجاع ودراسة «التراث» وبالتفاعل النقدي أو غير النقدي أحياناً مع ذلك التراث القومي وأيضاً مع ثقافات أكثر تطوراً .. ربما تكون هي ثقافات الدول المسيطرة نفسها - كانت تلك العملية جزءاً وعاملاً رئيسياً من عوامل التحرر الوطني وفاعلاً أساسياً في السعي إلى نشوء «الكيان القومي» المستقل تطوراً لحركة التحرر الوطني الفعلي ، لا الشعارى ولا المكذوب التي حاولت أنظمة الهيمنة الليبرالية أو الشمولية على السواء بالتزوير السياسى / الثقافى - وبالقمع المسلح وبتنمية قوى اجتماعية محلية متواطئة - حاولت أن تفرضه على من وصفتهم «الميديات» جمع ميديا - بأنهم «همج» أو «برابرة» أو بدائيون .

ولكن طوال المائة أو المائة وثلثين سنة (قبل بدايات عصر العولمة الجديدة في سبعينات أو حتى ستينات القرن العشرين) كانت عملية إحياء وحماية وتطوير «الثقافات القومية» تجرى في مواجهة عمليات معاكسة متعددة ، ربما كانت أكثرها (شيوياً وخطورة ، متمثلة إما في محاولات «التجميد» أو حتى التكويس إلى الوراثة) في العالم الإسلامى بوجه خاص نماذج «ممتازة» لا حصر لها ، عربية وأفريقية وآسيوية - هندية وباكستانية ... الخ) وإما في محاولات الطمس أو الإلغاء : من طمس أو إلغاء اللغة القومية إلى طمس وإلغاء الدين حتى طمس وتزوير التاريخ القومى (تقدم مشروعات ومحاولات الدول الاستعمارية أو المسيطرة فى كل من الجزائر وأفريقيا جنوب الصحراء وآسيا الوسطى والقوقاز ثم الأناضول نماذج ممتازة لهذا النوع) .

كانت كل تلك المحاولات - سواء للتحرر الوطنى وإنشاء كيانات قومية مستقلة عن طريق إحياء «التراث» وتطويره والتفاعل الإيجابى مع الثقافات المتطورة ، أو لأحكام السيطرة الأجنبية (الليبرالية أو الشمولية الأصل) أو فرض سيطرة قوى

«محلّية» متخلّفة قديمة أو «حدائّية» الشكّل دون تخرّج قومي حقيقي مهّدت غالباً لسيطرة أجنبيّة ما .. كانت تعكس تناقضاً رئيسياً بين قوى الدفع إلى نشوء كيانات قومية سياسيّة / اقتصاديّة / ثقافيّة متمايزّة ومستقلّة ومتكافئة ، وبين أنواع مختلفة من العولمة في مرحلة التأسيس . وفي كلّ هذه المحاولات بكلّ أنواع توجهاتها ، لعبت «الميديا» أو «وسائل الإعلام الجماهيريّة» أدواراً رئيسيّة - ليس فقط في التعبير عن بل في تكوين «الكيانات القوميّة» أو على النقيض أي في السعي إلى فرض هذا النوع أو ذلك من «العولمة» لصالح هذه الدولة العظمى المهيمنة أو تلك أو لصالح هذا التحالف أو ذلك من الدول الليبراليّة أو الشموليّة وفي اتجاه النوع الذي تريد فرضه من «العولمة» في مرحلة التأسيس . وفي كلّ أنواع مساهمات «الميديا» المتعارضة تلك كان «التحديث» بأسمائه المختلفة والمتضاربة (التمدين، التقدم ، النهضة ؛ التغريب - قبل تطور مفهوم أن التحديث يساوي : التنمية والتجدد) .. كان التحديث محوراً رئيسياً من محاور التفكير في ، والعمل على صياغة المجتمع المعين وفقاً لاتجاه القوة الاجتماعيّة / السياسيّة / الثقافيّة القائدة لعملية التحديث نفسها أو الموجهة لها أو المهيمنة عليها ، كما كان التحديث محوراً رئيسياً من محاور التفكير في أو العمل على صياغة «العالم» سواء في صورة كياناته المتعددة والمتمايزّة والمتكافئة، أو في صورة كتلة موحدة «معوّلة» تحت شارة أو راية ليبراليّة أو شموليّة.

\* \* \*

في كتاب «الميديا والحدائّة» : نظريّة اجتماعيّة للميديا» يقول عالم اجتماع الإعلام جون تومبسون ، إن الدولة القوميّة الحديثة ، خاصّة منذ القرن التاسع عشر ، اعتمدت أو تكونت على أساس أربعة أنواع من «القوة» هي : القوة السياسيّة والقوة الاقتصاديّة ، والقوة القسريّة Coercive والقوة الرمزيّة. ويعني بالقوة «الرمزيّة» كلّ أنواع الانتاج الثقافيّ الفكريّ والفنيّ. ثمّ يؤكّد أن «الميديا» لعبت وتلعب الدور الرئيسيّ في حمل أعباء هذه القوة الرمزيّة بعد أن حمل كلّ من التعليم والدعاية المباشرة هذا العبء في القرون الثلاثة السابقة ، وهذا في الدول الصناعيّة المتطورة في الغرب (التي سبق التعليم والثقيف والترفيه الثقافيّ الفنيّ والدعاية - فيها ظهور الميديا الجماهيريّة واسعة الانتشار أو التأثير وحيث استقرت ورسخت تقاليد الاعتماد على تلك الوسائل لنشر وترسيخ وحدة ثقافيّة / شعوريّة قوميّة) . ولذلك فإننا نستطيع أن نزعّم بثقة أن «الميديا» عندنا التي سابقت التعليم والثقيف - وغيره حتى سبقتهم بسرعة هائلة بفضل «الصحافة» أساساً حتى قبيل عصر الإذاعة في العشرينات وقبل عصر التليفزيون منذ الستينات ... نستطيع أن نزعّم أن الميديا عندنا - قد استوعبت وسائط الدعاية والدعوة المباشرة (حتى الدينيّة منها) والثقيف والترفيه الفنيّ وغير

الفنى؛ وأنها أى الميديا - وفى طبيعتها الصحافة - قد حملت عبء الدعوة إلى التحديث بكل مفهوماته و اتجاهاته أكثر من غيرها من الوسائل والوسائط العاملة على خلق وترسيخ نوع أو آخر واتجاه أو آخر من أنواع أو اتجاهات الوحدة الثقافية والشعورية للأمة (بصرف النظر - بالطبع - عن منابر بعينها من وسائل النشر والإعلام استخدمتها الدول والقوى المتنازعة للسيطرة على مقدرات وثروات وعقول شعوب المستعمرات) .

\* \* \*

إن نظرة سريعة إلى الأدوار التى لعبتها والاتجاهات التى تبنتها الميديا المصرية الوطنية فى العقدين الأولين من القرن العشرين (أى : الصحافة وحدها ، فى بدء مرحلة نضج السعى المصرى إلى ترسيخ قواعد الكيان القومى الوطنى الخارج من هلامية وفوضى عصورنا الوسطى) .. إن مثل هذه النظرة سوف تؤكد لنا تنوع وخطورة الأدوار التى قامت بها الصحافة أو «الميديا» المصرية آنذاك حين كانت الأهداف الوطنية تتلخص فى البداية - فى التخلص من الاحتلال البريطانى ، ومن ما يمكن تسميته «التخلف» باقتباس أو تطوير ما يمكن تسميته بالأسس أو الجوانب القانونية الدستورية للتحديث أى : حكم القانون وسيادة الأمة والحقوق الدستورية للمواطنين مع الحفاظ على وحدة النسيج الاجتماعى الدينى والسياسى للوطن الواحد . وتراوحت المعالجات بين الدعوة للتمسك بالسيادة العثمانية لتأكيد عدم شرعية الاحتلال البريطانى ، إلى تبنى فكرة : الاستعانة بفرنسا لـ «خلع» بريطانيا من مصر إلى اللجوء إلى إثارة مشاعر «وطنية» مصرية خالصة دون برنامج محدد ثم إلى وضع برنامج زراعى تعاونى قانونى محدود وإلى الإشادة بأمجاد مصر «الحضارية والعسكرية» مع إعطاء اهتمام أكثر بالجوانب المتعلقة بالقيم والعلاقات الاجتماعية ، وبالهيكلة الاقتصادية وبقضايا تطوير القوانين و «الآداب» أو «الفنون» المصرية «العصرية» التى تؤكد أننا .. «لا نقل عن الإنجليز المحتلين» .. والتى «تحتاج إلى أن نستكمل زينة الصناعة والتجارة الحديثة والتمسك بشرائع الدين الحنيف الصحيح» ، غير أن البعض رأى أنه لا سبيل للنهضة سوى خلع التبعية العثمانية فوراً لأنه لا بد أن تكون : «مصر للمصريين» ولا بد للاحتلال الأجنبى من كل نوع أن ينتهى : «فمصر أم الحضارة لا تنتمى لغير نفسها ، ومع ذلك فلا بد من تمهيد طويل بدايته هى احتذاء الطريق الذى سلكه الأوربيون ، أى : «انبعاث علوم وفلسفات اليونان وفنونهم» وتجديدها ، ثم علوم وفلسفات «عصر الأنوار» فى القرن الـ ١٨ الذى مهد للنهضة الحديثة مع الاهتمام بالتعليم ويجعل «الحكومة» شعبية نيابية كحكومات

الدول المتقدمة ، والاسراع بنقل «أنواع الصناعات والتجارة التي تصلح لنا» إلى أن يصلح المجتمع للاستقلال ويكون قادراً عليه وأهلاله .. ولم يفكر آخرون في الدعوة للسيادة العثمانية ، بل سلموا بها وتجاهلوا في وقت واحد ! وانتقلوا بسرعة من الدعوة للاعتماد على فرنسا إلى الدعوة إلى : «الوطنية الناشطة» والتصنيع وإنشاء بنك وطني ، وهللوا لتعاون الوطنيين مع «جناب الخديو» ورحبوا بأفكار التعاون الزراعي و : «تحسين حال الفلاح» وب : «المرسح المصرى المنتقد للعادات الذميمة والداعى إلى مكارم الأخلاق» .. ولكن الجميع دون استثناء رحبوا بالدعوة ثم بتنفيذ إنشاء «المدارس العالية» ثم «الجامعة الأهلية» ، المصرية وشاركوا في جمع التبرعات لإنشائها ، واعتبروا نشر شبكات «المياه المكررة النقية» والترام والكهرباء في بعض أحياء القاهرة والاسكندرية من علامات : «التحديث» أو «التمدين والرقى» وطالبوا بالمزيد .

\* \* \*

كانت «الميديا» الوطنية أكثر من أى شئ آخر تصنع عقلية «التحديث» بوجهها وتوجهاتها المختلفة وتعبير عنها ، في عصر تأسيس كل من الكيان القومى المتمايز ووضوح القوى التى تعاكس هذا التأسيس .

(٦)

## العولمة الإعلامية : شارع الإتجاه الواحد أم المسارات العديدة ؟

أصبح معروفاً وشائعاً ، خصوصاً بين «المثقفين» فى الحديث عن «العولمة» أن ينصرف التفكير تلقائياً إلى إدراك العولمة - أولاً - على أنها «الأمركة» أى الهيمنة الأمريكية المباشرة وغير المباشرة الاقتصادية والثقافية والسياسية وفرض «الصياغات» الأمريكية على أساليب فهم وإدارة «الوجود الاجتماعى / الثقافى» للبشرية ومضامينه؛ كما ينصرف التفكير - ثانياً - إلى حقيقة أن لهذه «الأعلمة / الأمركة» جناحين تخلق بهما لفرض هيمنتها وصياغاتها على العالم : الجناح الاقتصادى والجناح الثقافى - يسبقان الجناح العسكرى ذاته ويفوقانه بكثير فى إتساع المدى وفى مرونة التوظيف وفعالية التأثير وعمقه . ولكل من الجناحين عضلاته : للاقتصاد ، الدولار القوى والبنوك العملاقة ومعها الشركات الماردة عابرة القوميات وللثقافة شبكات «الميديا» الجبارة وهذه بدورها شركات أو تابعة لشركات وبنوك عابرة للقوميات ومرتبطة بأجهزة رسمية وشبه رسمية أو «أهلية/رسمية» لجمع وتحليل وتوزيع المعلومات والأفكار (الموجهة دائماً) ولإنتاج المواد الإعلامية والتثقيفية والترفيهية ... الخ من كل نوع حتى أفلام الإعلانات التى «تدبلج» باللغة المطلوبة فى كل سوق .

تحتاج هذه الشبكات «الإعلامية» ذات الامتداد الكوكبى وتستخدم بغزارة أعلى منتجات الثورة التكنولوجية وأكثرها قدرة - بالتوزيع الكثيف - التجارى على خدمة جناح الاقتصاد بحكم النسبة الهائلة التى تحققها من القيمة المضافة (الأرباح) أى أن هذه الشبكات الإعلامية تحتاج وتستخدم مئات من الأقمار الصناعية وعشرات الألوف من المعدات الرقمية فى مئات من محطات الربط والبيث والتوزيع - حتى أجهزة الاستقبال المنزلية والشخصية التى تستخدم منذ أواخر الثمانينات - الأسلوب الرقمى Digital الذى يكفل نقل وتبادل وترجمة ملايين الرسائل المشفرة بالصوت والصورة - بين عشرات أنواع الميديا - المنتشرة وحداتها بمئات الملايين فى كل أنحاء المعمورة .

\* \* \*

غير أن الرباط «العضوى» الاقتصادى التكنولوجى والوظيفى العملى الذى يربط وسائل - ووسائط «الميديا» العالمية بعملية أو بـ «واقع» العولمة لا يعتمد على مجرد : «من يملك» الشركات مالكة أو منتجة الصحف أو برامج التلفزيون أو نشرات المعلومات والأنباء أو الأفلام وإنما يعتمد بالدرجة الأولى على من يملك قدرة

«التوجيه العام» على مستوى البناء الاقتصادي / السياسي - للعالم .

في دراسته عن «الميديا والحداثة» عام ١٩٩٥ - يقول جون تومبسون إن شركة سوني اليابانية اشترت عام ١٩٨٩ اثنتين من أكبر شركات هوليوود لانتاج الأفلام وبرامج التلفزيون وهما شركتا كولومبيا وتريستار بمبلغ ٣,٤ بليون دولار ، وكانت شركة «سوني» قد اشترت قبلهما شركة «سى . سى . اس» للتسجيلات الموسيقية والغنائية . وفي العام نفسه اشترت شركة ماتسوشيتا شركة «إم سى إيه M. C. A» التي تملك شركة يونيفرسال لانتاج الأفلام السينمائية وبرامج التلفزيون بمبلغ ٦,٩ بليون دولار والمعروف أن شركتى سوني وماتسوشيتا من أكبر المنتجين لوسائل الاتصال الألكترونية فى اليابان ومن أكبرهم فى العالم (لا تتفوق عليهما سوى شركة صينية لم يحدد تومبسون اسمها تنتج الآن نحو ٢٧ ٪ من مجموع انتاج العالم من أجهزة التلفزيون ، ويقول إن رأسمال هذه الشركة هو استثمار يابانى / أمريكى / ألمانى مشترك .. بينما الصين نفسها لا تنتج أكثر من ٤,٥ ٪ من مجموع ما تذيعه كل شبكات التلفزيون فى العالم من أفلام وبرامج تلفزيونية ونشرات معلومات وأنباء ... الخ) . غير أن السؤال البديهي هنا هو : هل غيرت الملكية اليابانية من توجهات انتاج يونيفرسال أو كولومبيا أو تريستار وغيرها ومضامينه الفكرية أو الأيديولوجية أو السياسية؟ وبالتعبير «النظري» أو الأكاديمي : هل تغير مضمون الرسائل «الرمزية» فى انتاج هذه الشركات وغيرها عندما انتقلت الملكية من أيدى بنوك أمريكية أو أفراد أمريكيين إلى أيدى نظرائهم اليابانيين أم أن تأثير معادلة القوى السياسية الاقتصادية الرمزية القسرية التي يملكها البناء الأمريكى فى مجموعه - ظل هو الحاكم فى رسم أو تحديد ذلك المضمون ؟

لاشك أن الإجابة تبدو بديهية وفورية : إن ذلك المضمون لم يتغير . ومع ذلك فمن المؤكد أن المفهوم الذى يساوى بين «العولمة» و «الأمركة» ، خاصة فى مجال «القوة الرمزية» - أى : الثقافية «التي تمثلها» «الميديا» يحتاج إلى مناقشة .

فى صيف عام ١٩٨٩ أصدرت منظمة اليونسكو فى باريس تقريرها المعنون : تقرير (حالة) الاتصالات العالمية World Communication Report ويوضح هذا التقرير أنه توجد فى العالم ٧٨ شركة (أو : مؤسسة تتكون من عدة شركات) تعمل فى مجالات الميديا - كلها ذات انتشار «كوكبى» طبقاً لمعيار محدد لمدى اتساع تغطياتها وجمهور أو جماهير متلقيها وإن ٣٩ من الـ ٧٨ تنطلق من الولايات المتحدة و ٢٥ من أوروبا الغربية و ٨ من اليابان و ٣ من كندا وواحدة فقط فى استراليا ، ولا تضم هذه الشركات للميديا ذات الانتشار الكوكبى أية واحدة من العالم الثالث بما فيها دول عملاقة الحجم كالصين أو الهند ولا واحدة من «قوة عظمى»

سابقة مثل روسيا ، ولا واحدة من دول ذات ثقل ثقافى (لغوى/ حضارى/ سياسى) فى محيطها الإقليمى . مثل تركيا أو مصر أو نيجيريا .

غير أن الدراسة الاستطلاعية النظرية والتحليلية التى أجرتها منظمة اليونسكو أيضاً على مرحلتين : قام بالأولى العالم السويدى كارل نورد سترنج والإيطالى تابيوفاريس وصدرت فى عام ١٩٧٣ ، وقام فارييس وحده بالمرحلة الثانية وصدرت فى عام ١٩٨٣ تحت عنوان مشترك هو : «حركة المرور التلفزيونية: شارع الاتجاه الواحد ؟ تحليل للتدفق الدولى لمواد برامج التلفزيون : Television Traffic : A one way street ? A. Survey and analysis of the International flow of television Programmes.

وذلك فى التقرير رقم ١٠٠ من تقارير اليونسكو الخاصة بوسائل الاتصال الجماهيرية (اليونسكو - باريس - عام ١٩٨٦) أى أن النشر العام لم يحدث إلا بعد ثلاثة أعوام من انتهاء المرحلة الثانية .. هذه الدراسة التى أجراها عالمان أوريان أولهما يؤمن بفكرة وجود الهيمنة الأمريكية المطلقة على «عقل العالم» من خلال الهيمنة السياسية / الاقتصادية / الرمزية على «الميديا الكوكبية» وهى الفكرة التى روج لها الماركسيون الجدد (مثل هربرت شيللر فى : «وسائل الاتصال الجماهيرية : الأمبراطورية الأمريكية» الطبعة الثانية عام ١٩٩٢ عن : ويست فيويريس؛ كولورادو) غير أن الثانى - أى : فارييس الذى يبدو أكثر واقعية واقناعاً يرى أن : «هناك تفاعلاً دائماً بين صادرات «الميديا» الكوكبية ذات الطابع الغربى عموماً ، حتى من الشركات اليابانية وبين كل من تأثير «الميديا» الوطنية - أى - أو المحلية ، وتأثير الثقافات المحلية «الموروثة» الوطنية أو التراثية ، وتأثير نزعات التجدد أو التجديد أو الأحياء للثقافات القديمة فى مراحلها المختلفة؛ هذه النزعات التى تحتاج الآن أكثر أنحاء العالم» .. يستشهد فارييس (وتومبسون معه) بظواهر من نوع : إحياء اللغة «الهندية/ الأوردية» فى الهند لتحل بسرعة محل الإنجليزية كلغة قومية محلية ولغة «توحيد» للهند محل اللغة «الكولونىالية أو الاستعمارية (أى : الإنجليزية) .. كما يستشهد بإحياء النزعات القومية والدينية فى شرق أوروبا وروسيا والقوقاز ، وفى العالم الإسلامى من ناحية ، والكاثوليكى - فى أمريكا اللاتينية بوجه خاص - من ناحية ثانية ، وإحياء النزعات العرقية القبائلية والطائفية فى أفريقيا من جانب والطائفية العرقية حتى فى الولايات المتحدة ، خاصة ولايات الجنوب والغرب الأوسط والوسط بوجه خاص من جانب آخر.

كل ذلك رغم «تدفق المرور الإتصالي» الحدائى - بوسائل الميديا المختلفة -

الذى يمزج بين نزعات مادية وحسية شبقية (أى : جنسية فاضحة) وتجارية وفردية وعلموية لا علمية وإنما شبه علمية ... الخ .

السؤال الذى يطرح نفسه - فى سياق بحثنا عن علاقة الميديا والتحديث هو : كيف يمكن أن تكون نتيجة هذا التفاعل بين «الميديا الكوكبية» غريبة الطابع وعالمية الانتشار وبين امتزاج تأثير الميديا المحلية مع طوفان النزعات الطافرة من تحت سطح استقلال الكيانات السياسية / الثقافية «القومية» وتمايزها ؛ وكيف يكون تأثير هذا التفاعل على التحديث الذى لا بد أن يكون جوهره هو التطور المكين للكيانات القومية ذاتها مع السير حثيثاً أو وئيداً فى طريق التنمية تخلصاً من كل علامات وقيود التخلف ؟

هل تكون العولمة من منظور الميديا ، شارعاً ذا اتجاه واحد إذن أم شارعاً متعدد المسارات والاتجاهات التى قد لا تشترك إلا فى البدايات والنهايات وحدها ؟

(٧)

## إكتشاف دور الإعلام فى تفاعل الثقافات .. وتذويها ١

عرف القرن العشرون محاولات علمية مؤثرة كثيرة لتأسيس علم «موضوعى» وغير إيديولوجى بدرجة أو بأخرى ينظم ويفسر ظاهرة التفاعل المستمر بين «الثقافات» المختلفة التى تنتمى إلى حضارات متميزة بل تنتمى أحياناً إلى كيانات قومية متميزة داخل الحضارة الواحدة .. وفى هذه المحاولات الساعية لتأسيس ذلك العلم تزايد الاهتمام بدور وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية (الميديا) فى تلك التفاعلات مع تزايد انتشار تلك الوسائل وقوتها من ناحية ومع تزايد اعتماد الجماهير ، والدول والمؤسسات الاقتصادية والسياسية - على وسائل «الميديا» المختلفة ووسائلها من ناحية أخرى ، ومع تزايد إدراك الفكر الاجتماعى للقوة المتنامية والتأثير المتعاظم للأفكار والأساليب والمعلومات فى صياغة وفى تحديد مستوى وكفاءة الأنظمة التى تتكون منها حياة المجتمعات ، ويتحدد على أساسها وجود المجتمعات ذاته : الأنظمة الانتاجية (التكنولوجية) والاقتصادية والثقافية والسياسية . كان تأثير الميديا وانتشارها وقوتها يتعاظم ، ومعه يتزايد إدراك دور «المعرفة» مضموناً وشكلاً ، ويزداد عمقاً وتفصيلاً فيزداد الاهتمام بدور الميديا فى نشر نوع بعينه أو اتجاه بذاته من المعرفة .

انتقل هذا التطور من مرحلة تأسيس علم لـ «تاريخ الأفكار» Ideas على يدى مؤرخ الثقافة الأمريكى آرثر لافجوى Arthur Lovejoy فى عشرينات القرن العشرين ساعياً إلى إكتشاف «قانون» لتفاعل تأثير العلم والأدب والفلسفة وكل ماهو «فكر» على الحياة الفعلية للناس فرادى وجماعات ، ودولاً دون أن يهتم بوسائل نشر ذلك الفكر وهذا قبل أن ينتبه العالمان الفرنسيان لوسيان فييفر وجورج لوفبر فى الثلاثينيات إلى أهمية «نوع» وسيلة النشر ، وبالتالي إلى أهمية الفنون الجماعية ، وذلك فى سعيها لتطوير فكر لافجوى إلى ما أطلق عليه علم : «تاريخ العقلية» Mentalities فكان ذلك إيذاناً بإدماج «الميديا» وأساليبها فى أى إدراك للتطور الثقافى والنفسى للمجتمعات / الثقافات إلى أن بدأ الجيل الثانى من علماء مدرسة فرانكفورت الألمان فى الأربعينات ، وخاصة مع تطوير كل من هيربرت ماركوز ثم يورجين هابرماس لأفكارهما بناء على ما شاهدها من تأثير طاغ للميديا النازية على جماهير أمة «منقفة» كالأمة الألمانية - بدأوا فى إدراك الخطورة القصوى للميديا فى ظل نظام سياسى يهيمن وحده - بأيدولوجيته على كل مصادر المعرفة والوعى والتثقيف. غير أن المدرسة البريطانية ومنذ أوائل الخمسينات وبزعامة أستاذها رايموند ويليامز - وتأثير من المناخ الليبرالى المفتوح فى بريطانيا - بدأت تكتشف كلا من عملية التفاعل بين

ثقافات وإيديولوجيات وعقائد ووجهات نظر ومعلومات متباينة ، وعملية «التوجيه» المباشر الملموس ، أو غير المباشر والمستتر لذلك التفاعل نفسه لكى يضمن النظام الاجتماعى (وأداته السياسية أى الدولة ، وأداته التنفيذية ، أى الحكومة) ألا يودى هذا التفاعل إلى تغيير طبيعة الأسس الهيكلية «للبناء الثقافى» الأصلية للمجتمع أى للثقافة القومية التى اكتفى ويليامز بتسميتها : الثقافة المحلية (أو الاجتماعية) وحتى يضمن النظام الاجتماعى (القومى) نفسه ألا يودى التفاعل غير المحكوم إلى «سلخ» المجتمع عن ذاته (الليبرالية الغربية - مثلاً - ... الخ) أو إلى نزعه من سياقه التاريخى / الثقافى الأصلية . وفى هذا الصدد كانت المدرسة البريطانية - مستفيدة من تطورات أفكار الألمان والفرنسيين - هى التى وضعت الأسس التى أقام عليها عدد من علماء الاجتماع الثقافى المعاصرين - منذ الستينات - أفكارهم الوصفية والنقدية عن «الاتصال الثقافى» أو : «الثقاف» أو «الامتزاج الثقافى» - (مالينوفسكى ولينتون ... الخ) والتى جعلت للميديا الدور الأكبر فى تحقيق التفاعل الثقافى من كل نوع - وخاصة مع استقرار «عصر التليفزيون» منذ منتصف الخمسينات .

\* \* \*

سار هذا التطور فى إدراك «حقيقة» تفاعل الثقافات الدينامى من ناحية ، وواقعية تعاضم دور الميديا من ناحية أخرى ، فى مواجهة تصور «سكونى» مقابل أشاعه فى صورته المشهورة مفكر اجتماعى أكاديمى - بريطانى (فورتيس) فى عشرينات القرن العشرين (بعد تجربة أكاديمية له فى الهند لاحظ فيها سيادة اللغة الإنجليزية ، وتقاليد الأرستقراطية / البيروقراطية البريطانية - المدنية والعسكرية - بين الفئات الهندية المناظرة) .. وكان فورتيس قد رأى أن عملية الاتصال الثقافى بين ثقافة قوية (تكنولوجيا ، معرفياً سياسياً ، عسكرياً ... الخ) وثقافة ضعيفة لا تؤدى إلا إلى : إمتصاص الثقافة الأقوى للثقافة الأضعف التى تتوارى تدريجياً داخل وعاء الثقافة الأقوى إلى أن تزول الثقافة الأضعف وتندثر .. ولكن مدارس علم الاجتماع الثقافى المعاصرة التى تعتمد على دراسة تجارب عديدة ومتنوعة للاتصال الثقافى تؤكد الآن إنه حتى فى حالة امتصاص ثقافة أقوى لثقافة أضعف ، فإن تلك الأخيرة تترك فى الكيان الثقافى الأقوى بصمات كثيرة ، إضافة إلى تمييز تلك المدارس العلمية المعاصرة بين أنواع القوة الثقافية وتجلياتها ونتائجها ومصادرها ونتائجها : فالقوة العسكرية والتكنولوجية الغربية (الفرنسية/البريطانية/الإسرائيلية !!) ربما تكون قد أدت إلى إمداد شعوب «الشرق» والعالم العربى - بتصورات مغايرة عن نظم التعليم أو نظم التقاضى أو أشكال المساكن أو طرائق تنظيم الدولة وأجهزة الحكم والنظم العسكرية والانتاجية . ولكنها أدت - بشكل معاكس ، إلى إيقاظ حسهم الدينى

والقومي والوطني - أى إيقاظ - وحتى إيجاد - المكونات الرئيسية الأساسية للثقافة القومية والوطنية نفسها (أوضح ذلك كله ، العالم الأمريكى روبرت ياغ فى كتابه المهم : «ما بعد الاستعمار : مقدمة تاريخية» - عام ٢٠٠١ بلاكويل -أو كسفورد).

\* \* \*

قد تذوب بالفعل ثقافات ضعيفة التكوين (اللغوى/المعرفى/العقائدى) لا تملك مؤسسات متجذرة الأصول فى تربة مجتمعاتها ، وقد «تندثر» تاركة بعض بصماتها فى بنية الثقافة الأقوى الغازية (أو المستوردة) القادرة على الاستيعاب الكامل وعلى «الاحتواء» ولكن التفاعل الثقافى ، بمستويات متعددة وبوجوه متعددة أيضاً وهذا هو الأنموذج السائد بين الثقافات المتكافئة القوة ، مع ضرورة الانتباه إلى تعدد أنواع «القوة» وتجلياتها ومصادرها ونتائجها .

ومع ذلك فإن «الميديا» ذات الانتشار الكوكبى ، وهى «غريبة» أساساً باعتبارها واحدة من أهم أدوات الانتشار ، ثم التفاعل الثقافى إن لم تكن أكثرها أهمية فى «عصر الجماهير» التى تتعامل مع الصحافة ومع التليفزيون باعتبارهما أقرب - وأسهل (وربما : أرخص) وسائط الحصول على المعلومات والأفكار ، والترفيه ، والتعرف على - والتأثر بـ : «أنماط الحياة والممارسات الاجتماعية المغايرة والأكثر عملية ومعاصرة... هذه «الميديا» الكوكبية الغربية قد تكون وسيلة «إضعاف» لمقاومة وأصالة الثقافات المستقبلية ، والأكثر استعداداً لأن تمتص من الثقافات الأقوى (تكنولوجيا واقتصادياً وسياسياً وعسكرياً) .. ووسيلة «تليين» لدفاعات تلك الثقافات المستقبلية ونظمها «المناعية» الحافظة لأصالتها ، كما قد تكون وسيلة بالغة التأثير فى مجال صرف الثقافة «الاجتماعية» بتعبير رايموند وليامز (أى الثقافات المحلية القومية الوطنية) وحرفها عن مهمتها الرئيسية التى لخصتها دراسات علم الاجتماع النقدى المعاصر فى أنها : توحيد الأمم أو المجتمعات القومية ، وتوعيتها بكل من إيجابيات التحديث وسلبياته معاً .

obeykandi.com

## طوفان الميديا ... ومنطق الحكمة ...

• ... ما بعد الختام :

الكشف التطبيقي للميديا...

الآن وبعد أكثر من أسبوعين على وقوع الجريمة الإرهابية المروعة في عاصمتي الولايات المتحدة .. السياسية - واشنطن ، والاقتصادية - نيويورك (\*) .. هل يمكن تحديد الأسئلة الصحيحة ، واستخلاص الأجوبة الصحيحة - أو على الأقل ، الأجوبة «المرجحة» من خلال قراءة الحدث المفزع الدامي (أكثر من ثلاثة آلاف قتيل أو مفقود - غالبيتهم العظمى من المدنيين) وملابساته ، ومن خلال قراءة ما تبعه . طوفان إعلامي دافق السرعة مركز كثيف ثقیل الوطأة عالمي الانتشار ؟ .. غير أننا يجب أن نتساءل أولاً : هل يمكن أن تكون الأسئلة الصحيحة - في بداية مثل تلك القراءة - هي أسئلة البحث عن مرتكب الجريمة ، أم هي أسئلة البحث عن أسبابها وملابساتها معا ، أم هي الأسئلة التي تفصل بين الأسباب وبين الملابسات ، أم أن الأسئلة الصحيحة هي أسئلة البحث عن الدوافع .. وأسئلة البحث عن المستفيد .. لعلها - الأسئلة وإجاباتها المرجحة - تقودنا إلى تحديد المجرم الحقيقي ، وتقديمه للعدالة ، ومعاقبته بما يستحق . وربما يكون الأكثر أهمية أن تكون الأسئلة الصحيحة وإجاباتها المرجحة طريقاً صائباً إلى التفرقة بين مختلف أنواع بربرية الإرهاب ، وبين النوع الوحيد الذي ابتكره عقل البشر من حكمة المدنية : أى الاحتكام إلى منطق العقل وحكم القانون ..

إن طبيعة مثل تلك القراءة الاستطلاعية تفرض عليها أن تأتى فى شكل ملاحظات متفرقة ولكن يربط فيما بينها الموضوع الواحد : أى الجريمة ذاتها ، وما تلاها من طوفان الميديا بالصورة «المتحركة» يصحبها الكلام الانفعالي الدعائي المتسرع ، والكتابات أو الأقوال التي نجحت فى التخلص من مساوئ «الميديا» باللجوء إلى أنواع مختلفة من التحليل المنطقي والموضوعي - رغم أنها وصلت - إلينا وإلى العالم - أيضاً عن طريق وسائل الميديا (الإعلام) المختلفة .

• ملاحظة أولى :

... رغم الريادة التي يتمتع بها العقل الغربي - فى طريق الاستناد إلى العقل المنطقي والموضوعي الهادف لتحليل وإدراك الأحداث «التاريخية» الاجتماعية والسياسية الكبرى ... ورغم أن العقل الأمريكى (الثقافة الأمريكية الرفيعة) هو الآن - ومنذ نحو قرن كامل - يقف فى طليعة العقل الغربي فى الطريق ذاته - بشواهد

(\*) نشر هذا الفصل فى الأهرام ، بعد نحو أسبوعين من أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ؛ وفى المعالجة السياسية لتلك الأحداث تجلّى بوضوح أكبر من أى معالجة سابقة دور الميديا «المولمة» ووظيفتها ؛ ودور «الميديا» المقابل : دور إغراق العقول فى طوفان الدعاية . أو إيقافها بالفهم والحكمة .

ومساهمات لا تحصى ، رغم ذلك فإننا للحق لم نشعر - حتى مجرد شعور - ولو من بعيد بأى أثر لوجود هذا العقل المنطقي الموضوعى - وسط الطوفان الإعلامى الذى قادته محطة التليفزيون الأمريكية «الكوكبية» الانتشار الشهيرة : «سى. إن. إن» .. لم نشعر - مجرد شعور - بوجود هذا العقل ، حتى ولا على سبيل التجمل أو الزخرفة والتزين (قبل أن تمر أربع ساعات على وقوع الجريمة ، كانت تصريحات المسؤولين الأمريكيين الذين وصلت إليهم المحطة المذكورة - أو وصلوا هم إليها ، فى تنسيق نموذجى بين السلطة والميديا تشير إلى اسم أسامة بن لادن باعتباره المشتبه الأول فيه - بتدبير الجريمة .. أى أن البحث تحول إلى مجرد بحث بوليسى عادى عن : «الجانى» لا يهتم مطلقاً بالدوافع والأسباب والمستفيد .. ثم إن الاتهام كان موجهاً - بشكل مسبق إلى «جانب» جاهز فى عقل الميديا ومن ترتبط بهم . إن علماء الاجتماعى الثقافى المتخصصين فى دراسة «الميديا» العصرية ينبهوننا إلى أن هذه «الميديا» فى المجتمعات الصناعية الكبرى ، عادة ما تكون مرتبطة بمصالح مالية/ تجارية/ صناعية كبرى، وهى نفسها المصالح التى ترتبط بها دوائر السلطة السياسية وصنع وتنفيذ القرار .. ولذلك فإنها (أى: الميديا الكوكبية من هذا النوع) لا تهتم بما توفره الثقافة التى تنتمى إليها من «معرفة» ومناهج دقيقة للوصول إلى مزيد من المعرفة والوعى بتحويلات الواقع .. وإنما تهتم بالتركيز على رسم صورة للواقع ، أو للأحداث - لا تسعى من خلالها للوصول إلى معرفة بالحقيقة ولا إلى إدراك لها وإنما تسعى إلى حشد الرأى العام وتوجيهه إلى ما يكون فى خدمة الدوائر المرتبطة به.

#### • ملاحظة ثانية :

طوال السنوات العشر - أو نحوها - التى انقضت منذ أطلق الرئيس الأمريكى الأسبق (جورج بوش الأب) مصطلح : النظام العالمى الجديد ، وما صحب إطلاق هذا المصطلح أو تلاه مباشرة من انهيار النظم الشيوعية وتفكك كتلتها وتفكك الاتحاد السوفيتى وسقوط نظامه - وبدء سلسلة التحولات الديمقراطية فى كثير من بلدان العالم الثالث .. طوال تلك السنوات - وحتى اليوم السابق للجريمة - لم تكن تمر ساعة من نهار دون أن نسمع فى ذات مركز الميديا الكوكبية - أو نقرأ - عبارة: «المجتمع المدنى» باعتباره مجتمع المؤسسات الأهلية المدنية - الكبيرة والصغيرة ، القومية والإقليمية ، المحلية ، المحدودة أو ذات الارتباطات الدولية، والقانونية وغير النفعية المحدودة (لا تسعى للربح) والتى تمثل كلا من ضمير المجتمع (أى مجتمع وكل مجتمع) وعقله الموضوعى الحر والإنسانى .. ولكن هذا المجتمع المدنى ، الأمريكى بشكل خاص - اختفى تماماً ، وكليةً ، وكأن ليس له أى وجود - من

الطوفان الإعلامي المصور / الناطق - الذى أطلقه مجتمع المصالح الرأى بمصالحه، والذى يبدو واضحاً أنه يسيطر سيطرة «شمولية» لا تضاهى على عملية صنع «وعى» أعضاء المجتمع «المواطنين» الأفراد - أى سواء فى حالة انفراد كل منهم أو تجمعهم فى شكل كتلة واحدة لا تفكر إلا من خلال ما يشهه طوفان الميديا من معانى بواسطة الصور والكلام الانفعالى والعاطفى ، الذى امتزجت فيه مفردات إيديولوجية وطنية متطرفة مع مفردات إيديولوجية دينية من جانب وعرقية من جانب آخر !

ولم يصلنا شيء - أى شيء مطلقاً - فى هذا الطوفان - من المجتمع المدنى الأمريكى : لا من اتحادات النساء أو نقابات العمال أو طلاب الجامعات أو أساتذتها أو الجمعيات العلمية أو الطائفية أو الدينية - وهى بعشرات الآلاف هناك - ولا حتى من الأحزاب السياسية - كأحزاب - رغم ما لهذا المجتمع المدنى ومكوناته من أهمية هائلة بالفعل فى إدارة شؤون «المجتمع» الأمريكى : من إنشاء الدكاكين أو الملاعب .. إلى إنشاء محطات الطاقة النووية .. إلى انتخابات «الشريف» أو القاضى المحلى .. إلى انتخاب رئيس البلاد .. ولكن الميديا الكوكبية ، التى ترتبط بدوائر «مصالح» معينة لها «إيديولوجياتها» المعينة ، لم تهتم بأن تلقى ولو بشعاع ضوء ضئيل على موقف (أو : مواقف) مكونات هذا المجتمع المدنى الأمريكى .. وهى فى - الحق - مكونات محترمة للغاية - على الصعيد المعرفى والفكرى من ناحية أو على صعيد تمسكه بأسس حكم القانون والشرعية الدستورية والقيم الخلقية العامة من ناحية أخرى ، كما أنها - فى الحق أيضاً - مكونات متنوعة للغاية تعبر عن «تنوع» فكرى / ثقافى واجتماعى حر وحيوى التفاعل إلى حد كبير .. فلماذا اختفت - كلياً تقريباً - من الصورة الإعلامية ؟

#### ● ملاحظة ثالثة : [١]

◆ فى اليوم السابع بعد الجريمة أذيع فى لندن كلام لرئيس وزراء بريطانيا - أنتونى بلير - يصف فيه «الحرب» الوشيكة بأنها حرب المدنية أو الحضارة ، ضد البربرية ، وبعد ساعات قليلة أذيع كلام آخر للرئيس بوش يصف فيه الحرب بأنها «حملة صليبية ضد الإرهاب» . وقد اختلفت الكتابات العربية فى تفسير كلام أنتونى بلير ، ولكنها اتفقت على نقد كلمات بوش . أما بلير فقد ربط بوضوح بين المدنية وبين (الغرب) وجعل للشرق صفة واحدة هى البربرية وأما بوش فقد يكون واجباً أن نتذكر أنه فى : الأدبيات الشائعة فى الغرب - وفى الميديا خصوصاً - فإن استخدام عبارة : «حملة صليبية» شائع لوصف أية حملة عامة فى أى مجال يسعى «المجتمع» الرسمى» لحشد الجماهير وراءها ، حتى ولو كانت حملة للتطعيم ضد شلل الأطفال مثلاً أو حملة لتغيير نظام التعليم أو مكافحة الجريمة المحلية (هل يدرك

الرئيس بوش هذه الحقيقة ؟) ، ومع ذلك فإن التفسير المباشر لهذه العبارة ، فى السياق الذى فرضته الميديا الأمريكية الكوكبية - والمحلية بالطبع - ودوائر المصالح المرتبطة بها ، على الجريمة ، هذا التفسير الذى ربط العبارة بالحروب الصليبية - بدا للتو هو التفسير الوحيد المقنع ، الذى أنتج ردود فعل مباشرة من دوائر عديدة إسلامية وغير إسلامية متراوحة الشدة بين الهجوم والنصح .. الأمر الذى دفع بوش إلى الاعتذار وسحب العبارة ، لا توضيحها .

#### • ملاحظة ثالثة : [٢]

يبدو أن «الشحن» الإعلامى / السياسى و «الثقافى» الأمريكى ضد «المسلمين» الأمريكيين ذوى الأصول العربية/ الآسيوية .. ومن غير السود الأمريكيين الذين دخلوا الإسلام بشكل مكثف نسبياً منذ الستينيات - يبدو أن هذا «الشحن» ليس جديداً ولا هو وليد «الجريمة» الإرهابية الأخيرة ، فمنذ اليوم الثالث أو الرابع من الجريمة ، بدأت قطاعات أو جماعات أو أفراد ينتمون إلى جزء عنصرى منظم وغير محدد من «المجتمع المدنى» الأمريكى تهاجم هؤلاء المسلمين الأمريكيين (أنفسهم ، ومصالحهم) .. الأمر الذى حدا بالحكومة الأمريكية وإعلامها الموحد شأن أى دولة «شمولية» حقيقية إلى المسارعة بالتحذير من هذا الاتجاه ومقاومته ، وإلى إرسال صورة (إعلامية) جديدة مناقضة .

.. هل كانت المبادرة الحكومية والإعلامية الأمريكية للتهدئة تجاه المسلمين المحليين مصحوبة بالتحرك السياسى بين حكومة شارون الإسرائيلية والسلطة الفلسطينية الوطنية .. هل كانت محاولة متأخرة لاحتواء نوع من الاحتقان الاجتماعى والعرقى والطائفى / العنصرى ضد نحو عشرة ملايين مسلم أمريكى !؟

#### • ملاحظة ثالثة : [٣]

وهل يمكن اعتبار المبادرة نفسها امتداداً للتنسيق النموذجى بين «السلطة» و «الميديا» فى مجتمع ليبرالى ؟ إن المفكرين الليبراليين والمستقبلين الذين بشروا بمجتمع المعلومات أو بالمجتمع المعلوماتى أكدوا أنه سيكون هو المجتمع الليبرالى المثالى فى «شفافيته» وفى سماحه بدون حد بالمشاركة فى صنع واتخاذ القرار ؛ غير أن التنسيق الإعلامى (المعلوماتى والفكرى) بين السلطة والميديا فى أكثر مجتمع متطور «معلوماتياً» الآن ، يبدو أنه يأتى لكى ينقض هذا التطور المتفاعل على المجتمع المعلوماتى وليبراليته .

#### • ملاحظة ثالثة : [٤]

منذ سنوات قليلة ، وبعد اكتشاف أن تيموثى ماك فى - منفذ عملية

أوكلاهوما - لنسف المبنى الفيدرالي وقتل نحو ٤٠٠ شخص فيه - هو أمريكي «فوقازي أبيض» بتعبير الأمن الأمريكي ، نشرت الميديا الأمريكية - على أسبوعين متتاليين - عدة تحقيقات عن المنظمات المتطرفة المعادية للحكومة - وللدولة الفيدرالية الأمريكية وأوضحت كيف أنها منظمات مسلحة (ذات ميليشيات جيدة التسليح) تضم مئات من الجنود والضباط السابقين مثل «ماك في» نفسه ، وأنها ذات إيديولوجيات عنصرية وطائفية وفوضوية قوية وواضحة تنشر في أدبيات كثيرة وتوزع عن طريق دور نشر وصحافة محلية كثيرة خصوصاً في ولايات الوسط الأمريكي ذات الطابع الإقليمي والمحلي / المنغلق .. وبينت كيف أنها منظمات تعبر عن حالة من الاحتقان الاجتماعي والغليان السياسي الشديد في قلب المجتمع الأمريكي وأنها تعادى الدولة الفيدرالية صراحة وتستهدف هدمها ، ولبعض هذه المنظمات صلات وثيقة بدوائر الجريمة المنظمة ، وبالجمعيات ذات الطابع الديني الجديد المرتبط بخرافات القرون الوسطى الأوروبية مع تطويرها بما يلائم الثقافة الشعبية التي تبثها الميديا المعاصرة : ثقافة الأفلام والمسلسلات التي تضع «الكون» كله بكل مفرداته في الفضاء وفي كوكب الأرض ، الخرافية والأسطورية والاجتماعية/ التاريخية ، تضعها كلها في حالة «عداء» ميمت للإنسان الأمريكي ووجوده .. الأمر الذي يؤدي إلى توليد «ثقافة شعبية» أمريكية شائعة تمتزج فيها صراعات الاحتقان الاجتماعي / المحنى ضد الدولة المركزية وما تمثله من مصالح وقوانين ، وضد «الآخرين/ المحليين.. والآخرين على صعيد الكوكب .. وعلى صعيد الكون كله ... إنها «ثقافة شعبية» تؤدي إلى توليد «حالة عقلية/ نفسية» جماعية في لحظات الأزمة أو الصدمة حيث تستخدمها الميديا المعاصرة لخدمة مصالح الدوائر التي ترتبط بها . إنها حالة أشبه بحالة جماهير أوروبا القرون المظلمة الذين كانوا يفضل وسائل «ميديا» عصرهم يرون الشيطان في كل ركن وفي كل كيان غير مألوف !؟

فما علاقة هذا الاحتقان الاجتماعي/ السياسي/ الثقافي الأمريكي المحلي، والمنظمات العنصرية والفوضوية التي أنتجتها بجريمة ١١ سبتمبر .. بالحملة الإعلامية/ السياسية التي أسرعت الميديا إلى تلوينها بلون معين وتوجيهها وجهة واحدة !؟

هل فضلت الميديا الكوكبية والمصالح التي تمثلها أن تنسى أو تتجاهل ثقافة أمريكا الرفيعة وعقلها المنطقي العلمي والموضوعي المتمدن المتوازن ، وأن تتمسك فقط بمنتجات ثقافتها الشعبية ، شبه البربرية الهمجية والخالية من أى نزوع علمي منطقي موضوعي .. بقدر ما فضلت تجاهل المجتمع المدني الأمريكي والاكتفاء بمجتمع السلطة والمصالح .؟

## ● ملاحظة ثالثة : [٥]

أ - فى مساء الأربعاء ١٩ سبتمبر وبعد أكثر من ثمانية أيام - استمعت من راديو السيارة ومن محطة «الأخبار والموسيقى» المصرية إلى حوار متعمق أجرته بالتليفون مذيعة مصرية مع أستاذ أمريكى عربى الأصل ، لم ألتقط من اسمه سوى : «الأستاذ أو الدكتور خليل ...» .. وبعد أن طرح الأستاذ تحليلاً موجزاً متعمقاً لدوافع الجريمة ، فى إجابة على سؤال سمعت جزئه الأخير من المذيعة الذكية :... قال بالحرف : «إن أسامة بن لادن .. إذا ثبت أنه وراء هذه الجريمة فإنه يقدم مستقبل العالم الإسلامى لأعدائه على طبق من ذهب ...» .

ب - بعد ظهر يوم الجمعة ٢١ سبتمبر - أذاعت قناة الجزيرة لقاء مصوراً قديماً - عمره أكثر من عشرة شهور - مع أسامة بن لادن كان أحد مذييعها قد أجره معه فى أفغانستان عقب القصف الأمريكى لقاعدته إثر تفجير السفارتين الأمريكيتين فى دار السلام ونيروبي وقتل نحو ٤٠٠ شخص - أكثرهم كانوا من أهالى الدولتين المدنين البسطاء ، فى هذا الحوار العجيب استخدم بن لادن لغة ومصطلحات عصر الحروب الصليبية فعلاً : ووصف الأمريكين والبريطانيين بالصليبيين ، والنصارى والكفار المتحالفين مع «اليهود» وتوعدهم بالذل والقتل - بعد أن دعا عليهم طبعاً .. - لم يتحدث بلغة الوطنيين المناضلين ضد الاستعمار والصهيونية والاستيطان والعنصرية ، ولم يفرق بين العسكريين والمدنيين .

## ● ملاحظة ثالثة : [٦]

فى الحديث عن الدوافع الحقيقية لدق طبول الحرب فى اتجاه أفغانستان (وسط آسيا) استثماراً للجريمة المروعة التى أسرعت الميديا الكوكبية - مع رموز دوائر المصالح المرتبطة بها - إلى تحديد مرتكبيها ومن وراءهم فى غضون بضعة ساعات - لا بد أن نتوقف عند رائحة البترول من ناحية والمراكز الاستراتيجية المنبعا استعداداً لصراعات العقود القادمة .. تحدث عبد الملك خليل - مراسل الأهرام فى موسكو - عما تقوله دوائر التحليل الاستراتيجى فى العاصمة الروسية : أفغانستان على حدود كل من إيران وباكستان وشبه القارة الهندية وجمهوريات آسيا الوسطى المسلمة - وثيقة الارتباط ما تزال بروسيا ، وبالقرب من حدود الصين المنافس المناوئ المنتظر للغرب - وفى أقرب نقطة ممكنة من بحر النفط الجديد - حول بحر قزوين ومن خطوط النقل الممتدة إلى الصين والمتدفقة إلى باكستان أو إيران .. ولا بد أن نسأل هنا : «أى طبق من الذهب» قدم عليه هذه الفرصة لمن يترصون بها ، ذلك التنظيم الإرهابى الذى أسرعت الأيديولوجية التوسعية إلى اقتناصها وهى أيديولوجية وأساليب قناصى الثروات والشعوب والفرص ، كثيرى الأتعة - الذين يرتدون حتى قناع بن

لادن نفسه وجهاده الديني بعد أن اكتشفوه وربوه وسلحوه (لم يكن هو الذي هزم السوفيت في أفغانستان ولا كان الطالبان ، وإنما كان تحالف المجاهدين الأفغان الوطني الذي أسرع الكثيرون ليلقوا عليه عباءاتهم أو عمائمهم أو شاراتهم) .

• ملاحظة رابعة :

في مقال «حقائق» - اليومي للأستاذ إبراهيم نافع ، يوم الثلاثاء ١٨ سبتمبر - وجدت أوضح وأعمق تعبير عن الوضع «النفسي الفكري» الذي وضعنا فيه الميديا الكوكبية طوال الأسبوع السابق على نشر المقال ، رغم أن الكاتب الكبير لم يشر إلى الجريمة ولا إلى ما اقترن بها في هذا المقال الذي أود لو أنقله هنا بأكمله ..

يقول إبراهيم نافع :

.. «في رأسك عالم احتار فيه العلماء والأطباء والفلاسفة ، بل والمشعوذون والدجالون أيضاً .

في الماضي كنا نملاً رؤوسنا بتجارنا وخبراتنا ، أما اليوم فإننا نملؤها بتجارب غيرنا وخبرات الآخرين ، النتيجة هي أننا نرى العالم بعيون غير عيوننا ، نراه على غير صورته. فقد أصبح للحياة صورتان : واحدة في رؤوسنا والأخرى في الواقع من حولنا ، فمع أي من هاتين الصورتين تتعامل ؟ مع التي في رأسك ، أم التي هي في الواقع من حولك ؟

العلماء يقولون : إن الغالبية العظمى من الناس يتعاملون مع الحياة التي تشكلت ملامحها في رؤوسهم ، وليس مع الحياة القائمة في أرض الواقع ، والنتيجة حالة سائدة من الإحباط واليأس ، أصابع الاتهام تشير إلى وسائل الإعلام التي تمطر الناس بسيل من رسائلها المملوءة بالجرائم والعنف والجنس والجريمة ، والقليل النادر من الفضيلة والمشاعر الدافئة» .

إلى أن يقول :

«فالقتل والألم في نشرات الأخبار أكثر درامية من كل الأفلام السينمائية ومسلسلات التليفزيون ، والشخصيات التي تظهر في الأخبار أكثر براعة من كل ممثلي هوليوود» .

وينتهي إلى القول بأنه : «.. يتعين علينا أن نزيد من التصورات التي نبنيها بأنفسنا عن العالم من خلال تجاربنا الشخصية ، وألا نسمح لوسائل الإعلام أو غيرها بأن تبني في أذهاننا ذلك العالم الذي تختاره لتقدمه لنا ، هنا .. وهنا فقط سوف نكتشف أن العالم به من الجمال أضعاف ما به من القبح» .

\* \* \*

هل يمكن إذن أن نطرح الأسئلة الصحيحة وأن نستخلص أجوبتها المرجحة عن:  
أسباب الجريمة المروعة وملابساتها ودوافعها والمستفيد منها بحثاً عن مرتكبيها ؟ ....  
ربما أمكن ذلك ، بعيداً عن الصورة التي رسمتها الميديا الكوكبية وحاولت غرسها  
في عقولنا .. غير أن المؤكد أن العقل المصرى - فى مقدمة العقول العربية - كان  
أكثر العقول التى تحدثت وأشارت إلى نوع المنهج الصحيح - إقتراباً من حكمة  
المنطق الموروثة والمستحدثة معا .. وهو العقل المصرى الذى أضاء للعالم الطريق  
الصحيح للتعامل المتمدين مع بربرية الإرهاب .. وبعيداً عن بربرية إرهاب مضاد .

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/١٦٨٤

ISBN : 977-281-189-8

مطابع الدار الهندسية

تليفون/فاكس : ٥٤٠٢٥٩٨